أونوريه دي بلزاك

الأب الخالد

رواية

تقديم ومراجعة

د. أحمد مدني

الكتاب: الأب الخالد (رواية)

الكاتب: أونوريه دي بلزاك

تقديم ومراجعة: د. أحمد مدني

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية



هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

بلزاك ، دي ، أونوريه

الأب الخالد (رواية) / أونوريه دي بلزاك ، تقديم ومراجعة: د. أحمد مدني

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٢٦ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٤ – ٧٣٨ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٩٢٥ / ٢٠١٨

الأب الخالد





تقديم..

يميز الناقد جورج لوكاتش في إطار دراسته للواقعية كمذهب أدبي،بين الواقعية الفرنسية وما سواها من واقعيات أخرى، وفي كتابه "بلزاك والواقعية الفرنسية" يعتبر أن الواقعية لم تكتسب نكهتها الفرنسية إلا مع بلزاك، فلا أحد مثله أحس بالآم الطبقات الشعبية من جراء الانتقال إلى الإنتاج الرأسمالي وما صاحب ذلك من انهيارات أخلاقية وروحية، وقد تضمنت أعمال بلزاك بتصويرها لقسوة الحياة في مثل هذا المجتمع انتقادات واسعة ولاذعة بالرغم من كون بلزاك كان ملكيا، مما مثل تناقضا بين مواقفه ورؤاه السياسية من ناحية وما تحمله رواياته من قيم وأفكار وما تعبر به عن واقع تعس يحياه الناس هناك في ظل حكم ملكي رأسمالي.

ويرى لوكاتش أن هذا التناقض يبلغ ذروته لكون الأبطال الحقيقيين في عالمه المليء بالشخصيات هم اولئك الذين يصارعون بعزم ضد الإقطاع والرأسمالية، وفي نفس الكتاب يقول : "تكمن عظمة بلزاك في ذلك النقد اللا متساهل لتصوراته واعتقاداته، وذلك بوصفه شديد القسوة للواقع، فهو لم يكن مجرد ملكي مبتذل، ولو كان كذلك لماتت كتاباته بعد موته، لكنه كان فنانا عبقريا، لامس العمق الإنساني الكامن تحت تلك القشرة القريبة من السطح".

أما ستيفان زفايج في كتابه "البناة العظام" فقد اعتبر بلزاك واحدا

منهم، وأرجع جوهر عبقرية بلزاك إلى يكمن في قوته الخارقة المحيطة بكل شيىء، وقد شبه تلك القوة بقوة العاصفة أو السيل، ولعل تلك القوة هي التي دفعته لأن يظل يكتب طوال عمره لمدة ست عشرة ساعة يوميا، فخلف أكثر من مائة كتاب رغم أنه غادر دنيانا قبل أن يتم عامه الواحد والخمسين.

وقد رأى بعض نقاده ومؤرخي الأدب الفرنسي أن تلك القوة دليل عظمة، ولكن غيرهم رآها دليل مرض نفسي أسموه "هوس الكتابة" وقد بلغ هذا الهوس ذروته في الفترة من ١٨٣٢ حتى ١٨٣٥م فقد أصدر في ثلاث سنوات فقط عشرين مجلدا ، تحت عنوان واحد هو " الكوميديا الإنسانية"، وفي تلك الروايات تصادف حشداً من الشخصيات تلعب دوراً رسمه لها بلزاك، من رواية إلى أخرى، ويخرج القارئ بإحساس أنه أمام عالم متكامل متشابك المصالح، متواتر الأحداث، تمثل كل رواية جانباً من حياته، أو طرفاً من أحداثه أو لحظة من تاريخه.

فمن هو بلزاك ذلك العبقري؟.

وُلد "أونوريه دي بلزاك" في ٢٠ مايو ١٧٩٩م في مدينة تورين الفرنسية، من أب هو برنار بليسا الذي غير اسمه فيما بعد ولسبب ما إلى بلزاك، وأمه هي "آن شارلوت سالمبييه" كانت أصغر من أبيه بـ ٣٢ عاما، وقيل أنها تزوجته رغما عنها، وكانت امرأة فظة سيئة الطباع عرفت بقسوتها وسوء معاملتها لأبنائها، ولهذه العائلة المتوسطة ، ولدت بعده بسنة ١٨٠٠م شقيقته لور التي ستصبح أيضا أديبة مثل أخيها، وإن لم تحقق

نفس القدر من النجاح الذي حققه شقيقها.

وقد عاش بلزاك طفولة قاسية بسبب أمه ، وقد وصفها بأنها الرعب والهول مجتمعين، وحمَّلها سبب أى معاناة مرت بحياته، وكان يقول دائما: "الرجل صنيعة أمه، والبيوت بلا أمهات صالحات قبور" ، ويبدو أنه لم يعترف بها أما، فقد قال: "قلب الأم هوة عميقة ستجد المغفرة دائما فى قاعها". وهو لم يتذكر لأمه أي مغفرة. وقد حُرم بلزاك من حنان العائلة طيلة السنوات الأولى من طفولته، حيث وضعوه عند المرضعة أولا؛ لأن أمه رفضت الاهتمام به ، ثم نقل بعدئذٍ وهو في الثامنة إلى مدرسة الرهبان اليسوعيين، وهناك عاش ست سنوات في ظل نظام قاسٍ، وتعرض للقمع والتخويف والضرب من قِبل رجال الدين المتشددين.

وفي عام ١٨١٣م اضطر بلزاك لقطع دراسته الثانوية مؤقتا نتيجة إصابته بأمراض عصبية وعقلية، إلا أنه استكملها بعد أن تم شفائه عام ١٨١٦م، وحصل بعدها على ليسانس الحقوق لكنه رفض العمل بالمحاماة ، وأصر على احتراف الأدب وعانى كثيرا لإقناع أسرته بذلك، وتحمل سنوات الفقر الشديد والحياة بالغة القسوة وأحس بأوجاع الفقراء وتعاطف معهم ، وللخلاص من سيطرة أمه المادية عليه وتهديدها له باجباره على ترك الأدب؛ لجأ بلزاك لتأجير نفسه لكتابة أي شيء يعرض عليه فقط من أجل الحصول على أي مال حتى لا يضطر لترك الكتابة، واستمر كذلك عدة سنوات.

وتبين تفاصيل تلك المرحلة من حياته في رسائله الخاصة التى تم جمعها

فى مجلدات، ومنها ما كتبها لأمه ولصديقاته ولزوجته وكشفت الكثير عن تفاصيل حياته الشخصية وحياة الفرنسيين وقتئذ.

وقد ظهرت ملامح موهبته الأدبية مبكرا حيث بدأ في سن العشرين يكتب قصصا بأسماء مستعارة، كان من أبرزها تراجيديا لم يتمكن من نشرها هي "كرومويل" عام ١٨٢٠م، وعلى هذا النحو توالت أعماله رغم حداثة سنه، فجاءت "الجنية الأخيرة" و"آنيت والمجرم" عام ١٨٢٤م وأعمال أخرى كثيرة، ولغزارة إنتاجه أصبح أدباء عصره يتوسمون فيه أحد أمرين : الأول ،كونه مجرد رجل مجنون فعلا يركب رأسه الشيطان، والثاني هو أن روحا أدبية عبقرية تتقمصه وتسمح له بهذه الغزارة في الإنتاج، وقد أثبتت الأيام أن الأمور كانت تؤكد هذا الاحتمال.

والحقيقة أن فقره الشديد ومطاردة الدائنين له دفعته إلى أن ينغمس كلية في الكتابة للحصول على أي عائد يساعده على تمضية حياته، وقد دفعته رغبته في مقاومة شبح الفقر إلى الدخول في عدة مشروعات في مجال النشر وفي مجالات أخرى، لكنه لم ينجح في أي منها منها ، فتراكمت عليه الديون حتى أثقلت كاهله فقضى عمره كله مطاردا من الدائنين، وبذلك كان الضغط الخارجي لمتاعبه المالية يزيد من الحرارة الداخلية لخياله ولقوة رؤياه مما جعله يعمل دون راحة وبسرعة، بحيث لم يكن يستطيع أن يحسن ويصقل رواياته التي كانت تتضاعف بسرعة، ونظراً لأنه كان مضطراً دائماً لمواجهة التزامات مالية ضخمة فقد كان عليه ألا يدرس مشكلة المال فحسب بل أيضاً ذلك المجتمع الذي يقوم على المال وعلى أشد أنواع

الصراع الاقتصادي ضراوة ، لذلك ارتقى درجات سلم الشهرة والمجد الأدبي في سرعة فائقة، واشتد الإقبال على مؤلفاته، ومازالت متداولة إلى اليوم رغم أنه توفي في ٢٠ أغسطس عام١٨٥٠ م .

وقد احتفلت فرنسا بهيئاتها الثقافية الرسمية وغير الرسمية بمرور مائة عام على رحيل كاتبها الكبير في عام١٩٥٠م ، لكن ذلك لم يكن مجرد مناسبة وانتهت، فمازال الكاتب الكبير يلقى ما يستحق من احتفاء واهتمام، وما زالت المسارح في فرنسا وغيرها تتسابق إلى إخراج مسرحياته الشعرية والنثرية، كما أن كتبه ورواياته العديدة المفيدة ترجمت إلى أكثر اللغات الحية وطبع كل منها عشرات المرات. ويؤخذ من إحصاء رسمي قامت به الحكومة الفرنسية أن مؤلفات بلزاك ظلت تعد أوسع المؤلفات الفرنسية انتشارا حتى قبيل الحرب العالمية الأخيرة.

كتب بلزاك رواية "الأب الخالد" وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، وكانت ظروف حياته الصعبه قد أكسبته نضجا ومعرفة بالطبائع البشرية الأصيلة، فهو يقدم فيها نموذجا بشريا من نوع أصيل، هو الأب جوريو الذي خلق أبا وكفى، وكانت أبوته هي كل شيء، بل هي الأبوة الخالدة التي لا تعرف غير الحنان الجارف، والتضحية الصادقة التي طغت على كل شيء وسلبته كل شيء، ولم تعرف في الدنيا شيئاً اسمه حب الذات أو اسمه الحق أو المنطق أو الأخلاق، ما دام الأب يهدف إلى سعادة أولاده ، وقد صور بلزاك في رواياته الحياة الإنسانية وما فيها من مفارقات سماها هو «الكوميديا الإنسانية»، وهي في الواقع أحفل بالدموع منها بالابتسام، وأدعى

إلى احتقار المجتمع الحافل بالمآسي. ولهذا كان الهدف الأول من هذه الرواية هو النقد الاجتماعي، وتصوير النفس الإنسانية، بما فيها من فضائل ونقائص، فهذا الأب الفريد في بر الأبوة يقابله عقوق البنوة العجيب، وإلى جوار ذلك شخوص تمثل النفاق، والطمع والخداع والقسوة.. والكاتب المبدع هو الذي يخلق نماذج بشرية، كلما طالعها الإنسان عرف فيها البشر، وعرف الطبيعة البشرية ذات العجائب والمفارقات.

وقد قال أحد النقاد الفرنسيين عن هذه الرواية : "تحتوي قصة الأب الخالد، كما قصص بلزاك في معظمها على عدد من اللآلئ، بالإضافة إلى كثير من المقاطع الهزلية، والدامعة، حيث نجد رائداً جريئاً، ومغامراً أديباً كبيراً، يكشف لنا بومضات شعرية ساطعة، عما أوحى إليه الحدث، وزودته به الملاحظة. عرف هذا الساخر أن يبين لنا، أفضل مما يبين لنا المؤلفون الذين يقال عنهم إنهم "قدوة"، دخائل الإنسان، وكيف أن موقفاً حرجاً يستطيع أن يبث، مؤقتاً، في أحقر الناس "صفات النخبة". على نور هذه العبقرية، تبدو لنا الوجوه الكامدة، أو البالية التي يحملها نزلاء فندق فوكه "كصفحات النقود الملغاة". يتضمن هذا البلى القيمة الأولية، والتمام الأصلي. الحياة لا تتجزأ: فإما أن نقدرها في محاسنها ومساوئها معاً، وإما أن نتخلى عن تقديرها. هكذا يجب أن نسلك تجاه آثار بلزاك في وثوبها المتدفق، وفي سواقيها الكدرة".

والرواية صدرت في أكثر من طبعه تحمل عنوان "الأب جوريو" وقد ترجمت إلى أغلب اللغات الحية في العالم، ويعتبرها النقاد درة الرواية الواقعية الفرنسية، وواحدة من أشهر معالم الرواية الواقعية عموما، فهي لم تشتط في الخيال، ولم ينشغل كاتبها بأي حليات شكلية أو شعارات سياسية واجتماعية، ولكنه صور العالم من حوله، بكل شخوصه، وبعلاقاته كما هي ، تاركا للقارىء

أن يحكم على الشخصيات، وهل تستحق المصائر التي انتهت إليها أم أن في نهاياتها وجدت ظلما كذلك الذي واجهته في الحياة.

وقد صدرت ترجمة الرواية إلى العربية لأول مرة في القاهرة متزامنة مع مطلع خمسينيات القرن العشرين، وهي الترجمة العربية الرائدة لهذه الرواية التي وجدت أكثر من مترجم تحمس لنقلها إلى لغة الضاد، بعضهم أثبتها بالاسم الأصلي " الأب جوريو" ، وبعضهم أبقى على الإسم الذي منحته لها الترجمة العربية الأولى لها وهي " الأب الخالد"، كنوع من الوفاء لترجمة رائدة، وللتأكيد على صفة تستحق أن توصف بها الرواية وشخصية الأب فيها وهي صفة الخلود.

وإذ نعيد اليوم تقديم الرواية للقارىء العربي وكما نشرت في ترجمتها الأولى التي صدرت في القاهرة في مطلع عام ١٩٥٢م وفي ذلك وفاء للترجمة وتأكيد على قيمتها، فقد كانت بمثابة النافذة التي أطل منها القارىء العربي لأول مرة على عالم روايات بلزاك، وربما كانت ترجمات رواياته الأخرى نتيجة للنجاح الذي حققته هذه الترجمة.

د. أحمد مدني

بنسيون فوكير

تدير السيدة العجوز مدام فوكير بنسيونا صغيرا منذ أربعين سنة، في شارع "سان جان فياف" في باريس ، وهو شارع صغير هادئ يقع بين الحي اللاتيني وحى سان مارسيل. وفي البنسيون يقيم أنواع متباينة من البشر ، ما بين ذكور وإناث، وشيب وشباب، ولكنه ظل طيلة هذه الأعوام بمنجاة من قالة السوء، فهو بنسيون طيب السمعة محترم كل الاحترام معروف بالصيانة والاحتشام، وإن كان بعيداً بمستواه المادي عن ترف الحياة وأبهة المظهر.

هذا من حيث المبدأ، أما من حيث الواقع، فقد مضت من الأعوام ثلاثون سنة لم يقم شاب بطرق باب البنسيون، الذي يشغل دارا مملوكة لمدام فوكير، وتقوم في نهاية شارع "سان جان فياف" حيث يهبط مستواه ليلتقي بشارع آخر هبوطاً مفاجئا يجعل صعود الخيل وهبوطها أمرا نادراً. الأمر الذي يضفي على البقعة هدوءًا شاملا قابضا للصدور، فلو عبر بها امرؤ خلي القلب اتفاقاً لوجد لهذه الكآبة صدى في نفسه كذلك الصدى الملازم لصدور أهلها المقيمين بها على الدوام. فناهيك بمكان يُعد فيه مرور عربة حدثا يُذكر ويُروى، وتبدو فيه الجدران الكالحة مربدة الوجه كأنها السجون. فهذا الحي الصغير الخامل لا ينازعه في باريس حي آخر في صفات الكآبة والملل وركود الحياة.

ويقوم بناء البنسيون بأدواره الثلاثة وراء حديقة صغيرة تفصله عن الطريق العام. ونوافذه لها مصاريع خشبية ذات ثقوب كخلايا النحل فيما خلا الطابق الأرضي فنوافذه مزودة بقضبان متقاطعة من الحديد. وخلف البناء فناء صغير ترتع فيه في ألفة عجيبة صنوف الخنازير والدجاج والأرانب، وفي مؤخرته مخزن لخشب الحريق.

والطابق الأرضي يتكون من مدخل تضيئُه نافذتان تطلان على الشارع يؤدي إلى قاعة المائدة التي يفصلها عن المطبخ تجويف السلم الخشبي. والواقع أن المدخل يقوم مقام قاعة الجلوس وهو مكان لا يضارعه في كآبته مكان آخر من حيث الشكل والضوء والأثاث.

أما قاعة المائدة فأثاثها عتيق وأدواتها ناصلة الطلاء وخزفها من أخس الأنواع. ولو أننا تحرينا الدقة في بيان مقدار بلى الأثاث لحملنا هذا الوصف على إطالة لا يتيسر التخلص منها إلى لباب قصتنا وتأخذ هذه القاعة أبهتها – النسبية طبعاً – حين تؤذن الساعة السابعة صباحاً بظهور «هر» لمدام فوكير قافزا هنا وهناك يلعق بلسانه اللبن من الفنجان المعد لهذا النزيل أو ذاك ، ثم ما تلبث الأرملة فوكير أن تشرق بطلعتها وعلى رأسها طاقيتها المصنوعة من التل، تلك الطاقية التي تعلو طاقية أخرى ليست من التل ولكن من الشعر المستعار، وهي تخطر في القاعة مجرجرة خفها العتيق، ويتقدمها أنف كمنقار الببغاء يتوسط وجهاً أكل عليه الدهر ولكنه لا زال سمينا متناسبا في ذلك مع جسمها المكتنز، وشخصها على الجملة يحكي في صورة حية هذه القاعة التي ينم كل ما فيها على البلى

والأفول ، فلا نعدو الحق إذا قلنا إن مدام فوكير تمثل الخان، والخان يمثلها أصدق التمثيل، فقميصها الذي يتولى إلى ما تحت ثوبها، وثوبها الذي نال منه القدم بشكل واضح حتى تغير لونه، صورة صادقة تلخص للناظر قاعة الجلوس وقاعة المائدة بما فيهما من تنافر.

ويقال مع هذا – والعهدة في هذا القول على النزلاء – إنها امرأة طيبة السريرة رقيقة القلب، ولعلهم يرثون لها ويظنون بها الإملاق لأنهم لا يسمعون منها إلا شكوى الفاقة فيظنون حالها كحالهم.

وما من أحد يدري من كان زوجها المسيو فوكير. فهي لا تتحدث أبداً عن المرحوم. وإنما تكتفي إذا سئلت كيف أضاع ثروته بأن تقول إنه فقدها في نوازل الأيام. ثم تثني بوصف قسوته عليها قسوة جففت دموعها ولم تترك لها فضلة من الشعور بالألم حتى تتأفف من عيشها النكد الذي لا مورد له إلا هذا الخان الكثير النفقة القليل الموارد.

ومتى سمعت الخادم السمينة «سلفي» التي تقوم بأود المطبخ وقع أقدام سيدتها، سارعت إلى تقديم الإفطار للنزلاء، وعددهم سبعة وقت حوادث هذه القصة سنة ١٨١٩ كان الطابق الأول يضم جناحين تشغل مدام فوكير أقلهما حظاً من أسباب الراحة وتشغل الآخر مدام كوتير وربيبتها الشابة فيكتورين تايفير وتدفعان معاً ١٨٠٠ فرنكا سنوياً

أما الطابق الثاني فيشغله موظف شيخ يدعى بوايريه وعملاق في الأربعين يصبغ سوالفه ويزعم نفسه تاجرا واسمه فوتران ..

أما الطابق الثالث ففيه أربع حجرات مؤجرة منهما اثنتان، وتشغل إحداها عانس هي الآنسة ميشونو، ويشغل الأخرى شيخ طيب القلب ينادي باسم «الأب جوريو»!

والحجرتان الأخريان تؤجران للطارئين الذين لا يستطيعون دفع أكثر من خمسة وأربعين فرنكا في الشهر نظير النوم والطعام. ويشغل إحدى هاتين الغرفتين في الوقت الحاضر شاب من أبناء الريف من قرية من أعمال مقاطعة أنجوليم أتى إلى باريس لدراسة القانون وهو سليل أسرة نبيلة أخنى عليها الدهر ولكنها تتحمل ألوانا قاسية من الحرمان في سبيل توفير مائة فرنك شهريا تدفعها إلى يد هذا الشاب ليدبر بها أمر مقامه وتعليمه وغذائه وكسائه. وذلكم هو «إيجين دي رستنياك» وفوق الدور الثالث حجرة الغسيل وخزانتان صغيرتان هما مخدعا الخادم «كريستوف» والطباخة «سيلفي».

فكان مجموع نزلاء الفندق المقيمين فيه سبعة، يضاف إليهم «منتسبون» من الخارج يتناولون وجبة العشاء فقط وعدتهم عشرة. لهذا تحفل قاعة الطعام في المساء بعدد كبير يتجاذبون أطراف الحديث فتكون لأصواتهم جلبة في تلك القاعة المعتمة. أما في الصباح فلا يتجاوز عدد الطاعمين ثمانية بما فيهم ربة الخان مدام فوكير فتبدو القاعة كأنها حجرة طعام عائلية تقوم فيها مدام فوكير بدور الأم. فالنزلاء يجلسون إلى المائدة بملابس المنزل وفي أرجلهم النعال الخفيفة، ويتبادلون التعليقات وأطراف الحديث بصورة ودية لا كلفة فيها.

ولكن أزياء هؤلاء النزلاء لا تنافر بينها وبين الخان وأثاثه المزري. فالرجال عليهم حلل الريدنجوت التي خف لونها ورث أديمها حتى ما تدري لرقته لونا معيناً أو صنفاً من أصناف النسيج معروفاً بذاته على وجه التحديد. وأحذية الخروج ليست أحسن حالاً من الحلل فهي بحالة ليس لها مثيل في غير ذلك الحي الفقير من باريس إلا مطروحة على قارعة الطريق.

وثياب النساء ليست خيراً من ثياب الرجال بكثير، فهي تشكو كثيرا ما قلبتها الأيدي لتبديل صورتها أو إعادة صبغها بعد أن حال لونها مرات ومرات.

وإذا كانت هذه هي الثياب، فما كانت الأجساد التي تكتسي بها أحسن حالاً: فهي أجساد معروقة ترك عليها صراع الزمن آثاره واضحة من هزال أو تغضن. فكل واحد من هؤلاء يحكي بشخصه مأساة حية بلغت ذروتها وتمت فصولها! وهي في طريقها إلى الذروة والتمام. مآس ليست كتلك التي تعرض في ملاعب التمثيل، فإن سوء طالعها حرمها لذة الصناعة وتزويق التأليف المحبوك والإخراج المنمق. إنها مآس كئيبة تعيش حاسرة الرأس لا يلتفت إليها أحد.

إن نزلاء خان فوكير هم أليق الناس وأولاهم بالحياة في ذلك الخان لأنهم مثله من نفايات الحياة فمن هم هؤلاء النزلاء على التحقيق؟

النزلاء

تقدمت السن بالآنسة «ميشو نو» حتى نالت من نور عينيها، لذلك تضع فوقهما وقاء من نسيج أخضر اللون يمسكه برأسها سلك من الحديد، فلو رآها ملك من ملائكة الرحمة لولى منها فرارا ولامتلأ منها رعبا.

أما شملتها ذات الشراشيب الطويلة فيخيل إليك أنها تغطي كتفي هيكل عظمي أو مومياء، فجسمها من النحول وبروز العظام بحيث يبدو للناظر بقايا جثة بشرية عدا عليها الموت من سنوات. وإنها لحيرة للعقول أن تدرك كنه ذلك السائل الحمضي الخفي الذي أتى على علامات الأنوثة فيها فليس في جسدها استدارة واحدة من تلك الاستدارات التي تتميز بها أجساد النساء، وإنه ليبدو أنها كانت يوماً ما ذات صبا وجمال فأين آثار هذا الجمال إذا كان الصبا قد ذبل وزال؟ .. هل أتى عليه البخل أو الطمع؟.. وأي النساء؟.. هل كانت حياتها قصة حب قوي؟.. أو هي لم تعرف الحب؟.. وهل كانت تتعيش من الاتجار بالثياب المستعملة والنفايات البالية، أو هي مومس لم تعد لها على الزنا سوق نافقة؟...

من يدري؟.. كل الذي تراه العين منها هو نظرتها الباردة الجامدة التي تسري لها في العروق رعدة، ومعارف وجهها التي يتوجس الإنسان منها فتأخذه نفرة غامضة. أما صوتها فله نبرة حادة عالية كنقيق الضفدع في

بركة غاض منها الماء. وهي تزعم أنها كانت ممرضة لشيخ ثري أوصى لها بمعاش سنوي قدره ألف فرنك، ولكن ورثته يماطلونها دائماً ولا تجد في طاقتها ما تدفع به عن حقها أمام هؤلاء الأقوياء.

وندع الآنسة ميشو نو لننظر في أمر السيد «بواريه» فمن هو السيد بواريه؟ إنه ضرب من ضروب المخلوقات الآلية. إنه إنسان آلي يتحرك كما تتحرك الأشباح، ففيه هزال الأشباح وصمتها وكآبتها، وفوق رأسه قبعة عتيقة وفي يده عصا لها رأس مكور من العاج المصفر يقبض عليه بأطراف أصابعه وذيول سترته الطويلة الواسعة تعبث بها الرياح وساقاه الهزيلتان تتخبطان في مشية كمشية السكران، فإذا تأملنا صدره ألفينا قميصا أبيض قذرا فوقه صدار أبيض يباري القميص في القذارة وتعلوهما جميعاً عقدة تلتف حول عنق هو أشبه الأشياء بعنق الديك الرومي! أما سرواله فهو ضيق ولكنه رغم ضيقه يبدو مطويا على هباء وفضاء! فمن يراه لا يخطئ أن يتساءل من أي سلالة غريبة هو وأي عمل مرهق أضناه إلى هذا الحديث وأي عاطفة مشبوبة أكلت جسمه حتى صار إلى هذا النحول لو جرت به ريشة رسام كاريكاتير لكان من المبالغة التي تحمل على محمل التهويل. ولا يمكن أن يتصور الإنسان لهذا المخلوق عملاً أليق به من وظيفة في وزارة العدل يختص فيها بحسابات آلات الإعدام والعاملين عليها وما يلزم لها من حبال وشحذ وما إلى ذلك من أقنعة سود وسلال تجمع فيها الرؤوس المقطوعة. أم لعله يعمل جابيا للمكوس على باب المذبح العام لماشية باريس.

ومهما يكن من أمر مهنته الحقيقية ، فالرجل يبدو لأول وهلة بغلا استنفذت قواه كثرة العمل في خدمة الدولة. فهو نفاية من نفايات الحياة الاجتماعية. إنه عامل من الذين يسخرون كمخلب القط لاستخراج الكستناء من النار، ولكنهم يعيشون ويموتون وهم يجهلون مجرد أسماء أولئك الذين يحرقون لهم أصابعهم لكي يخرجوا لهم الكستناء. وباريس العظيمة تحفل بهؤلاء من دون أن تدري عن آلامهم شيئاً. ولا غرو، فباريس بحر خضم ليس لمده آخر ولا لغوره قرار. وفي هذا اليم المترامي تيارات خفية ومخلوقات لا حصر لها، فمهما فتشت فيه لا شك واجد جديداً يروعك بنفاسته أو بقبحه وبشاعته: ففيه اللآلئ والأصداف وفيه الأزهار والأخطبوط وفيه الفئران التي لم يحلم بها بشر كما أن فيه حطام آلاف السفائن التي اختصرت له الأنوار رحلتها إلى مرفأ بعيد.

وخان فوكير بما فيه من الآنسة مو نوشو والسيد بواريه كهف من كهوف بحر باريس المجهولة يحفل بمخلوقات مما تعيش في الأعمال البعيدة ليس لها مثيل في البشاعة وغرابة التكوين.

ولكن في هذا الكهف الغائر وبين هذه المخلوقات المنفرة تبرز شخصيتان بينهما وبين سائر نزلاء الخان تباين كبير.

وأول هذين، أو أولاهما على الأصح، هي «فيكتورين نايفار» وإنها لفتاة في مقتبل العمر على محياها ذلك الشحوب الذي يتميز به من أصابتهم علة الصدر، وتفيض من عينيها نظرة حزينة تنبي عن أسى مكنون وهم مقيم، وفي قامتها تلك الرقة المرضية التي تدل على تكوين ضعيف لا

قبل له بمواجهة أنواء الحياة. وهي بهذه الصفات تشارك في الجو العام الذي ترك طابعه فوق كل ما يتصل بخان فوكير ونزلائه. ولكن ما في وجهها وصوتها من صبا وفي حركتها من نشاط وحيوية عصبية كان ينأى بها عن ذلك الجو ويفردها بمزية خاصة بها.

ولكن هذا الصبا إذا دقق المرء النظر فيه وجده أدعى إلى الأسى من الشيخوخة الفانية فقد ذوت أوراقها تحت ضربات الجفاف العاطفي والأبوي حتى صارت كالنبات الذي نقل من تربة إلى تربة فأعوزه الجو الصالح للحياة والنماء. بيد أن الناظر في عينيها الرماديتين اللتين تضربان إلى السواد يرى فيهما تلك الوداعة الناجمة عن ذلك التدين الشديد وذلك الإذعان الذي يورثه الإيمان من يعتصمون به حين تحز بهم مشكلات الأمور. وقد أفادتها هذه الرقة حتى لقد بدت بالقياس إلى المحيط الذي تعيش فيه كالزهرة الجميلة في خربة مملوءة بالعفن. ولولا شجنها الدائم لكانت جميلة إطلاقاً. ذلك أن السعادة تضفي على المرأة جمالاً سلبتها إياه مقاييس جسمها أو معالم خلقتها، لأن جمال السعادة هو الوضاءة الشاعرية وهالة الأحلام التي تجعل من المرأة شمعة تطيف بها فراشات القلوب. فلو أن فرحة الرقص في ثوب جميل صبغت وجنتها الصفراء بحمرة الحماسة والسرور، ولوأن كيوبيد أضاء بمشعله السحري ومضات الحب في عينيها، إذن لكان في مقدور فيكتورين تايفير أن تباري أملح الفتيات وتنازعها قصب السبق في مضمار الجمال. ولكن المسكينة تفتقر إلى أهم مقومات الجمال في المرأة وأهم مزكيات حسنها إلا وهو الثوب المليح، والحذاء الرشيق، وخطابات الغرام الوردية اللون المعطرة الأنفاس.

فمن هي؟.. إن والدها لديه من الأسباب ما يحمله على عدم الاعتراف بها. وهو ثرى واسع الثراء، ولكن قلبه مثل ذهبه برودة وجمودا. وهو يختص بشقيقها بالرعاية، ويشاركه ماله، وهو مزمع أن يورثه إياه كله أما هي فلا يريد أن يراها ولا أن يسمع عنها، ولا يخرج لها من ماله الضخم إلا عن خمسين فرنكا في الشهر.

ولما كانت والدتها من قريبات مدام كوتير فقد تبنتها هذه السيدة بعد وفاة والدتها كسيرة القلب بما لقيت من عنت زوجها وسوء معاملته. ولكن السيدة الطيبة القلب لا تملك إلا معاشا ضئيلا عن زوجها، فإذا انتقلت إلى جوار ربها فمن ذا الذي يرعى تلك الفتاة التي لا نصير لها في هذا العالم الذي يناصبها العداء؟

والسيدة الرحيمة تصحب الفتاة إلى الكنيسة صباح كل أحد، وتأخذها إلى كرسي الاعتراف مرة كل أسبوعين، لكي تظل على اتصال دائم بمنبع العزاء المستمد من ممارسة طقوس الدين وتقوى الله. فالإيمان بعالم آخر هو الموئل الوحيد لأولئك الذين خاب أملهم في الحياة الدنيا. وقد أفلحت هذه الخطة في إضفاء الرقة والوداعة على الصبية اليتيمة، بحيث لم تكره والدها برغم ما أتاه في حقها ولا يزال لديها أمل في استمالته. فهي تذهب مرة في كل سنة لتلقي ما رصده لها من مال وتحاول عبثا أن تقابله لأنه يقفل دونها بابه. وليس أخوها خيراً من أبيها. ومع ذلك فهي تذكرهما في صلاتها اليومية وتدعو الله أن يرقق قلبيهما من غير إدانة لهما أو ملام.

ولم تكن مدام كوتير ومدام فوكير تتحرجان من صب اللعنات على الولد والأخ، فإن جرمهما كان يبدو للسيدتين أفظع من أي وصف ورد في القاموس، فإذا سمعتهما فيكتورين أجابتهما بعبارات رقيقة لتنهاهما عن هذا الإقذاع، فتقع تلك العبارات على السمع كنوح الحمام الذي مهما صدر عن ألم شديد فهو لا يخلو من اللطف والمحبة ولا يمكن أن يصدر عن حقد أو بغضاء.

هذه فيكتورين تايفير. فمن هو الشخص الآخر الذي يشاركها في المباينة لسائر نزلاء الخان إنه إيجين دي رستنياك. الفتى الريفي الأبيض الوجه الأسود الشعر الأزرق العينين. وإن سيماه وآداب سلوكه لتنم بوضوح عن أصل عريق وتربية حسنة. وهو وإن اجتهد في الاقتصاد في نفقة ملابسه إلا أنه يحسن أن يبدو في بزة حسنة وأناقة لا بأس بها إذا حضرت المناسبة التي تستأهل هذه العناية. ولكنه في الأحوال العادية يرتدي حلة قديمة وينتعل حذاء بليت جدته وخصف نعله.

وإلى جوار هذا الشاب وتلك الشابة يبرز شخص آخر ليس من طراز بقية النزلاء. إنه «فوتران»، وهو رجل هائل الجثة في الأربعين من عمره يصبغ سوالفه ويبدو عليه المرح الشديد والإقبال على الحياة. وله كتفان عريضتان وصدر واسع وذراعان فيهما عضل كبير وتنتهيان براحتين كبيرتين يعلو أصابعهما شعر أحمر كثيف. وما يرتسم على وجهه الضخم من غضون مبكرة إنما يدل على خشونة تنفيها عنه معاملته الهينة لسائر الناس فهو لطيف المعشر خدوم لا يسمع بشيء فسد إلا بادر إلى

إصلاحه بيديه فهو على ما يلوح ذو خبرة بجميع الحرف من الملاحة إلى أقاليم الريف إلى إدارة الأعمال وشئون الاقتصاد ودقائق القانون وكبار البيوتات ولوائح السجون!. وإذا ضاقت بأحد معارفه الأزمات بادر إلى معونته، وكم من مرة أقرض مدام فوكير ونزلاءها مبالغ لا بأس بها. ولكن ما من أحد كان يماطله في حقه أو يتلكأ في سداد القرض لأن له نظرة مخيفة إذا جد الجد، فله عينان ثاقبتان تنفذان في حنايا الصدور وتخترقان الحجب وتكتشفان ما ينطوي عليه الناس من مشاعر وأفكار.

وكان من عادته أن يخرج بعد الإفطار ليعود ساعة العشاء ثم يختفي طول السهرة ليعود حول منتصف الليل فيدخل بمفتاح خاص أتحفته به مدام فوكير دون غيره من النزلاء. فهو الوحيد من بينهم الذين ينبسط معها ويداعبها ويناديها يا أماه ويحيط خصرها الضخم بذراعه. وكانت العجوز تظن هذا شيئاً يسيراً على أي إنسان ولكن فوتران دون سواه هو الذي يفكر فيه. مع أن الواقع أن فوتران العملاق وحده هو الذي يستطيع أن يقوم بهذا العمل لطول ذراعيه. وهو ينفرد بميزة أخرى هي بذله خمسة عشر فرنكا كل شهر نظير القهوة وكأس الكونياك اللتين يتناولهما يومياً بعد العشاء. وفي بعض الأحيان كان يطلق للسانه العنان فيكشف عن جانب الأوضاع المقلوبة في الدولة والمجتمع في أسلوب ساخر لاذع ينبيئ عن حقد لديه دفين على الدولة وعن سر لديه مكنون يحز في نفسه وإن كان يطويه ويحرص على إخفائه.

ولما كان الجمال والقوة هما أشد ما يجتذب التفات المرأة، فلا عجب

أن نجد فيكتورين تايفير تقسم نظراتها المختلسة وخواطرها الخفية بين هذا الكهل العملاق وذلك الشاب الريفي النبيل. فهي مشغولة بالقوة والجمال ولكن لم يكن فيها ما يلفت صاحب القوة أو صاحب الجمال، مع أن مفاجأة من مفاجآت القدر كفيلة أن تبدل حالها بين عشية وضحاها فتجعل منها قنيصة ترنو إليها الأبصار طمعاً في ثرائها العريض. ولكن القاعدة الثابتة أن كل نزيل كان لا يعير قصة سائر النزلاء ثقته كاملة، لأنه لا يهمه إلا مشاكله الخاصة ومتاعبه الشخصية.

مجموعة من المثقلين بأعباء الحياة ونوازلها، لم يكن فيهم شخص قرير العين بوجوده في ذلك الخان إلا صاحبته مدام فوكير، فهي ترى فيه ملكيتها الخاصة، ولا تبصر فيه عيباً، كأنها الأم التي ترى وليدها أوسم خلق الله وإن كان اتصافه بالجمال ضرباً من ضروب المحال.

وإن أتعس المنازل وأحفل المجتمعات بالأسى والشقاء لا تعدم فرداً منها يكون أضحوكة لسائر الجماعة. ولم يكن خان فوكير بالشاذ في هذه القاعدة. وكان أضحوكته المستمرة المستسلمة هو ذلك الشيخ الهادئ الفاني الذي ألف الجميع أن يدعوه «الأب جوريو».

عجوز في السبعين

والأب جوريو هو رجل عجوز ناهز التسعة والستين من عمره، اعتكف في بنسيون فوكير منذ سبع سنين أي منذ سنة ١٨١٣ بعد أن صفى أعماله واعتزل التجارة ، وقد سكن عند نزوله البنسيون لأول مرة ذلك الجناح الذي تشغله الآن مدام كوتير وابنتها فيكتورين، وكان يدفع لصاحبة الخان مائة فرنك عن كل شهر، فقد كان يبدو في مظهر الرجل الذي لا يدقق فيما ينفقه من مال ، لأنه تعود البسط في النفقة ولأن راحته الشخصية أعز عليه من درهم يدخره أو درهمين.

وقد رأت فيه مدام فوكير في ذلك الوقت رجلاً ساذجا يسهل استغلال طيبته، والطيبة هنا معنى من معاني الغفلة. وقد حمل جوريو معه إلى البنسيون عدداً وفيرا من الملابس الثمينة من مختلف الأنواع تظهره بمظهر الرجل الميسور الذي لا يضن على نفسه بشيء من متاع الحياة ومناعمها متى أغلق حانوته. وقد راق مدام فوكير في هذا الجهاز الفاخر ثمانية عشر قميصا من الحرير الرقيق تزينها حين يلبسها تلك الدبابيس الماسية الكبيرة الحجم. وكان الأب جوريو في ذلك العهد لا يلبس الصدار الأبيض إلا مرة واحدة يبدو به مختالا تتراقص فوقه سلسلة غليظة من الذهب فوق بطن مكورة تتقدمه في مهابة وهو ينقل خطوه بخيلاء. وفي جيب الصدار علبة نشوق من الذهب الخالص بداخلها خصلة من الشعر تشي بمغامرات عاطفية تعلق بمظهره الوقور. فإذا ألحت مدام فوكير في

مواجهته إلى أنه رجل ذو صبوات ابتسم ابتسامة ماكرة تنم عن شعوره بالزهو لهذا الإطراء الذي يرضي كبرياءه.

أما صوانات جناحه فقد حفلت بتلك التحف الفضية النادرة التي كان يوماً زينة بيته الكبير قبل أن تموت زوجه وتزوج بنتاه ويصبح البيت غير ذي موضوع. وهي أوان ثمينة كانت صاحب الخان ترمقها بعينين تقدحان بالشرر حين تساعده على ترتيبها وتنظيمها وكان يعتز بها لأنها التذكار الأخير لسعادته المنزلية الغابرة. وقد احتضن ذات يوم أمامها طبقا ووعاءً له غطاء تعلوه حمامتان تتبادلان القبلات، صنعا من الفضة المذهبة وقال لها بتأثير بالغ:

– هذه هي الهدية الأولى التي قدمتها لي زوجتي في عيد زواجنا الأول. غفر الله لها، فما كان أطيب قلبها، وكم من أشياء حرمت نفسها منها لكي تدخر ثمنها، وهي بعد في عهد عذرتها. فلا تعجبي يا سيدتي إذا قلت لك إنني أفضل أن أحفر الأرض بأظافري التماسا للقوت على أن أفرط في هذه الهدية. وإني لأحمد الله أن أتاح لي احتساء قهوتي كل صباح في هذا الوعاء الأنيق الذي يصلني بالماضي السعيد.

وكان جوريو إذ ذاك بادي الصحة متين التركيب رغم تقدمه في السن، يقبل على الطعام ويكثر من التدخين بطريقة تباعد بينه وبين البخل وتزيد صفة اليسر التصاقا به حتى باتت مدام فوكير تتقلب على فراش السهد طامعة أن تخلع عنها اسم فوكير لتولد وهي في سنها هذه باسم جوريو.

– آه ما أحلى أن أتزوج وأبيع الخان وأغدو سيدة معتبرة في الحي، أتسقط أخبار المعوزين، وأسدي يد المعونة إلى المحتاجين، وأقيم المآدب الأنيقة يوم الأحد، وأذهب إلى ملعب التمثيل على هواي في مقصورة خاصة دون أن أنتظر التذاكر المجانية التي يجود بها أحيانًا نزلاء الخان.

ولم يكن أحد يعلم أنها تدخر أربعين ألف فرنكا جمعتها درهماً بدرهم وفلسا بفلس ، ولكنها لا تغفل هذه الميزة حين تحلم بهذا الزواج، فترى نفسها أهلاً له بفضل هذه البائنة الضخمة، ثم تتحسس راضية مواضع جسمها المكتنز كأنما تستوثق من آيات الإطراء التي تزفها إليها طباختها البدينة «سيلفي».

وقد ظلت مدام فوكير طيلة الأشهر الثلاثة الأولى تستخدم الحلاق الذي يأتي خصيصا للأب جوريو في تزيين شعرها، بل اجتهدت في رفع مستوى نزلائها مرددة على الدوام أن خانها مؤسسة محترمة لا ينزل بها إلا الناس المعتبرون وأفضل القوم من الجنسين. فإذا تقدم إليها أحد برغبة الإقامة عندها بدأت بالتدليل على قيمة منزلها بأن السيد جوريو المحترم وهو من كبار التجار ورجال الأعمال السابقين قد فضله بخبرته الواسعة على جميع ما عداه من خانات عاصمة النور.

وقد أجدى هذا النهج الجديد عليها فنزلت عندها الكونتس دي لامبومسنيل، وهي عقيلة في السادسة والثلاثين من عمرها جاءت إلى باريس لإتمام تسوية المعاش المستحق لها بصفتها أرملة جنرال مات في «ميادين» القتال. وقد قدرت مدام فوكير هذا الشرف الذي أتيح لها حق

قدره فبذلت من جيبها تكاليف مائدة محترمة وخدمة ممتازة ستة أشهر ، ليكون المكان على قدر المقام، متفانية في إظهار عرفانها لجميل تلك السيدة العالية القدر التي تتلطف فتدعوها «صديقتي العزيزة» والتي تفضلت فقدمتها إلى صديقتين جاءتا لزيارتها إحداهما بارونة والأخرى زوجة كولونيل. فلما ارتفعت الكلفة أفضت مدام فوكير بمكنون رغبتها إلى الكونتس، فقالت لها الكونتس:

– إنه رجل محترم وفي صحة جيدة ولا زالت فيه بقية صالحة تقر بها المرأة عيناً. ولكني أرى أن تغيري من زينتك لكي تكوني أرعى لنظره وأندى على قلبه.

وبعد أخذ ورد صحبت الكونتس مدام فوكير فانتقت لها قبعة ذات ريش ووشاحها جميلاً وثوبا من آخر طراز. فلما أخذت مدام فوكير زخرفها وازينت راقت في عين نفسها وتوجهت إلى الكونتس ترجوها أن تتوسط بينها وبين جوريو، فقبلت عن طيب خاطر.

وخلت الكونتس بجوريو خلوة هدفت منها إلى كسبها لنفسها وإغوائه لحسابها. فلما رأت منه صدودا جرح كبرياءها خرجت على مدام فوكير بوجه يحمل إمارات السخط والتأفف!

– لا جدوى من مثل هذا الرجل فهو نفور شحيح له على أمواله ، فيه علل كثيرة ، ولن تأتيك منه إلا الهموم والمتاعب.

ويبدو أن ما جرى بين جوريو والكونتس كان من الحرج بحيث لم تطق

البقاء بعد ذلك معه تحت سقف واحد، فغادرت الخان في اليوم التالي، ولكنها نسيت قبل أن تغادره أن تدفع أجر إقامتها ستة أشهر، تاركة وراءها ملابس عتيقة لا تزيد قيمتها عن خمسة فرنكات!

وشكت مدام فوكير وبكت ولكنه عبثا بحثت عمن يدلها– في طول باريس وعرضها – على كونتس تحمل هذا الاسم مات عنها زوجها الجنرال صريعا في «ميادين» الشرف..

ولم تكن مدام فوكير سوى امرأة ضيقة الأفق لا تحسن تقصي الأسباب فيما يقع لها من أمور ولا تربط بين العلل والنتائج، فكل اهتمامها منصب على الحوادث ذاتها دون نظر إلى مصادرها ومسبباتها. ولديها من حب الذات حب أعمى يتميز به الجهلاء ما يجعلها تحمل الآخرين وزر ما تقع فيه من أخطاء. فغير غريب إذن حين منيت بهذه الخسارة أن نراها لا تعزوها إلى غفلتها وقصر نظرها بعواقب الأمور، بل تحملها على كاهل التاجر المتقاعد الطيب القلب جوريو فحقدت عليه حقداً شديداً ولاسيما لأن آمالها فيه قد خابت، وقد كانت لعمر الحق آمالا كبارا هونت عليها أن تنفق ما أنفقت في زينتها وأناقة مائدتها ومائدته تلك النفقات التي ذهبت أدراج الرياح. بل إنها مضت في حقدها عليه وكراهيتها له شوطا أبعد مما ذهبت إليه في حبها السابق الخائب. فحقدها لم يكن مبعثه فشل حبها بل إخفاق آمالها النفعية. ولأنها امرأة نفعية فقد تعين علها أن النفوس لا تعدم أبداً وسيلة للإساءة إلى من يضمرون لهم الكيد، فبدأت بإلغاء النوافل المرفهة التي كانت قد أضافتها إلى المائدة من أنواع المشهيات.

ولكن الأب جوريو كان رجلاً متقشفا مخشوشنا لا يأبه للمتاع في طعامه. فحسبه من زاد خير زاد طبق من الحساء وشيء من اللحم المسلوق وجانب من الخضر. لهذا تعذر على مدام فوكير أن تضايقه من جهة بطنه. فعمدت إلى التنديد به من ورائه والتغامز والتهامس عليه والإيحاء إلى سائر نزلائها أن يتخذوه موضوعا لفكاهاتهم وسخريتهم. وقد وجدوا في هذا ما يسليهم فأقبلوا عليه عن طيب خاطر.

وبعد انقضاء العام الأول تغيرت عادات جوريو قليلاً، فبعد أن كان يتغدى أو يتعشى في الخارج مرتين في الأسبوع أصبح لا يفعل ذلك إلا مرتين في الشهر فزادت فرص تحملها لوجوده معها على المائدة فلم تحمل هذا المسلك على قلة إيراده عن ذي قبل بل خطر لها أنه إنما تعمد هذا ليكيد لها ويضايقها ، حتى إذا انصرم العام الثاني طلب إليها أن ينقل إقامته إلى الطابق الثاني لكي يهبط بأجر إقامته من مائة فرنك إلى خمسة وسبعين لأنه مضطر إلى الإقلال من نفقاته، فطالبته المرأة بأجر العام مقدماً فقبل الرجل هذا الشرط. ومنذ ذلك اليوم تغير اسمه لديها من السيد جوريو إلى الأب جوريو.

وكان في مقدور أي إنسان يلحظ هذا الهبوط في مستوى معيشته، ولكن الحقيقة لم تكن في مثل هذه السهولة تقصيا ووضوحا. فالأب جوريو رجل كتوم لا يسهل معرفة أسراره. لهذا تضاربت الآراء حول أسباب سوء حاله بعد يسره الأول. فهذا فوتران العملاق الذي جاء إلى الخان في هذه الفترة يزعم أن الأب جوريو يتردد على يدخل في مضاربات طمعاً في

استدرار بعض ما فقده من الخسائر التي أدت به إلى الإفلاس. وزعم غيره من النزلاء أنه مبتلى بداء القمار. وزعم ثالث أنه عين من عيون البوليس السري. وتوهم غيرهم أنه بخيل يقرض المضطرين بربا فاحش. وهو على أي فرض من هذه الفروض ليست له في نظرهم صورة مشرفة، وإنما هو مجموعة من الرذائل والعار والضعف. ولكنهم كانوا يقبلونه على علاته لأنهم مسالم ولأنه هدف صالح لنكاتهم إذا ضاقت صدورهم بهموم الحياة.

بيد أن أجدر صورة خالها أحد للأب جوريو بالتنويه هي التي توهمتها مدام فوكير. فهو في زعمها – بل في يقينها – رجل ذو ثروة وقوة ولكنه إباحي ماجن له نزوات تتسم بالشذوذ. ولم تكن تعوزها الأسباب التي تبني عليه هذا الاعتقاد:

فقبل رحيل الكونتس ببضعة أشهر نما إلى سمع مدام فوكير في بكرة الصباح وهي بعد في فراشها حفيف ثوب حريري يجرجر أذياله فوق درج الدار ووقع خطى امرأة شابة تتسلل إلى غرفة جوريو التي كان بابها مواربا عن عمد ، وما لبثت الطباخة السمينة «سيلفي» أن دخلت عليها بالنبأ اليقين: فهذه فتاة أبهى من أن تكون شريفة، عليها ثياب كثياب آلهة الأساطير، تدلف إلى المطبخ وتسألها عن جناح السيد جوريو؛ فعمدت مدام فوكير وطباختها على الأثر إلى استراق السمع، فتسقطتا بعض كلمات من التودد والملاطفة من هذا الجانب وذاك، في تلك الزيارة التي دامت بعض الوقت ، فلما هبط السيد جوريو لوداع زائرته، تناولت «سيلفي» سلتها وتصنعت الذهاب إلى السوق لكي تتعقب العاشقين،

وقالت لسيدتها عند عودتها:

– لا بد أن السيد جوريو على جانب من الثراء فظيع، حتى يكون في مقدوره أن يعول صاحباته في هذا المستوى. تصوري يا سيدتي أن عربة من أفخم العربات الخصوصية كانت في انتظارها عند رأس الشارع؛ فصعدت إليها.

فلما كان الغداء، قامت مدام فوكير بنفسها فأسدلت من تلقاء نفسها الستار على النافذة، لأن الشمس كانت تقع أشعتها على عين جوريو! ثم قالت له في مودة ظاهرية:

– لك عند الحسان حظوة يا سيد جوريو. وحتى الشمس تتحرى أن تسقط عليك!.. وإن ذوقك وايم الحق لرائع، فما كان أبهاها!

فأجابها بزهو خاله النزلاء مموها لتغطية موقفه:

– إنها ابنتي...

وبعد شهر من هذه الزيارة حظي بزائرة أخرى بعد الظهر، بملابس الخروج، فظنتها الطباخة امرأة أخرى. واستطاع النزلاء هذه المرة أن يتأملوها، فإذا هي شقراء جميلة رشيقة، أوسم من أن تعد ابنة لمثل جوريو.

وبعد بضعة أيام جاءت فتاة أخرى، طويلة، جميلة سمراء، سوداء الشعر نافذة النظرة، وسألت عن السيد جوريو، فقالت «سيلفي»:

– وهذه ثالثة..

فلما عادت بعد أيام في المساء بملابس السهرة الكبرى، لم تعرفها الطباخة، فقالت مع سيدتها:

– وهذه رابعة...

وكان جوريو في هذه الفترة لا يزال يدفع مائة فرنك شهريا كراء لإقامته بالخان. فكانت مدام فوكير لا ترى ما يستدعي الغرابة أن يوسع رجل موسر على نفسه، وأن تكون له أربع عشيقات من الصبايا أو خمس، وكانت تعجب بلباقته إذ يزعمهن بناته. ولكنها وجدت في هذه الظاهرة تعليلا يرضيها لانصراف جوريو عنها رغم توددها إليه، بيد أنها لم تستطع إغضابه، ولم تتأفف من زيارة صاحباته له في الخان. حتى إذا هبط بالكراء إلى خمسة وسبعين فرنكا نغزتها الغيرة على سمعة الدار، وواجهته بالتقريع عندما رأت إحداهن تهبط من حجرته، فقال لها الشيخ:

– هذه ابنتي الكبرى.

– بنتك؟ وهل لك ست وثلاثون بنتا يا رجل!

– بل اثنتان فقط.

... فلما انتهى العام الثالث، صعد جوريو طابقا آخر، فسكن الطابق الثالث، هابطا بالكراء إلى خمسة وأربعين فرنكا في الشهر، وأقلع عن التدخين، وقطع راتب الحلاق مستغنيا عن تصفيف شعره وصباغته،

فبدا زري الهيئة. فلم يعد لدى مدام فوكير شك في أمره: إنه شيخ حطمته الرذائل، ولم تعد في عينيه قدرة على مقاومة آثار فسوقه لولا العقاقير التي يعالجهما بها الطبيب، وأما لون شعره الحائل الضارب إلى الخضرة فيرجع إلى إفراط الشيخ في الشهوات، وإلى المقويات الكيميائية التي يثابر على تعاطيها ليستعين بها على ذلك الإفراط.

والحق أن هيئة الرجل وحالته النفسية والجسدية كانتا تبرران هذا الاعتقاد. فهو ينحدر من سيء إلى أسوأ. وملابسه تبلى ولا يبدلها، وماساته السابقة وسلسلته الغليظة اختفت كلها تباعاً. وتدهورت صحته تدهورا فظيعا، فبعد أن كان يبدو في الأربعين وهو في التاسعة والستين صار يبدو في نهاية السبعين من عمره على أقل تقدير بعد أن ذهبت عنه آخر آثار تلك النظرة التي كان يتميز بها وجهه، وخبا ضياء عينيه حتى حال لونهما من الزرقة إلى الخضرة الباهتة، واحمرت جفونه حتى غدا يثير الشفقة إذا لم يثر الاشمئزاز.

وذات يوم انتهزت مدام فوكير الفرصة، وقالت له في قالب الدعابة:

– أرى بناتك قد انقطعن عن زيارتك هذه الأيام.

فانتفض الرجل كمن أصابته طعنة سيف، وقال بصوت مختلج:

– بل يأتين في بعض الأحيان.

فصاح النزلاء من الطلبة ضاحكين:

– ألا زلت تستطيع رؤيتهن من حين إلى حين؟ مرحى مرحى أيها الشيخ!

ولكن الشيخ لم يسمع ما قالوا، لأنه عاد إلى أحلام اليقظة التي يعيش فيها، فيحسبها من يراه حالة من حالات البلاهة. فما من أحد كان يصدق أن هؤلاء الفتيات بناته، بل كانوا جميعاً على رأي مدام فوكير أنه لو كانت له بنات على هذا الثراء الذي بدين به في زياراتهن السابقة له، لما اضطر إلى البقاء في هذا الخان على هذا الوجه الزري، وبهذه الملابس الخلقة.

وكيف كان يمكن التحقق من كنه هذا الشيخ؟ إن المسنين من النزلاء لا يغادرون الخان ولا الحي، فهم فيه كالمحارات في أصدافها. والشبان منهم ينسون الخان ومن فيه – بما فيهم جوريو – متى خرجوا إلى أفق باريس الرهيب.. فلم يعن أحد بالسؤال، ولو سألوا لعرفوا في يسر أن جوريو كان من تجار الدقيق وصناع الأطرية (الشعيرية) الكبار، وأنه جمع ثورة طائلة، وأن له بنتين حقاً من أعلى السيدات في باريس مكاناً وأعظمهن جاها.

وعلى هذه الحال، حلت سنة ١٨١٩ وقد قر في الأذهان أبعد الأوهام عن الحق في شأن هذا الشيخ المسكين، فهو عند الكافة لم تكن له زوجة ولا ولد، وإنما هو عزب حطمته الشهوات وعاقبه الله على الفسق والمجون بسوء الحال والمآل.

ليلة المرقص

كما ينتظر من شاب ريفي مثله أطلق له العنان في عاصمة النور، أتم إيجين دي راستنياك عامه الأول في باريس، فالدراسة لا تقتطع من وقته شيئاً كثيرًا لأنها في الغالب مداخل تمهيدية لعلم القانون، فأمامه متسع من الوقت تتزاحم عليه الشواغل إذا أراد أن يعرف جميع وجوه الحياة في العاصمة فيزور مسارحها وملاهيها ويطوف بمتاحفها ومعاهد الفن فيها ويتعرف إلى لغة الدهماء وتقاليد العلية.

وهكذا بدأ إيجين بالإعجاب بالعربات الفاخرة التي تترى أمام عينيه في الشانزلزيه، ولكن الإعجاب – إعجاب المحروم– انتهى إلى نتيجته الطبيعية وهي الغبطة والتمني والحسد.

فلما عاد بعد هذه السنة الأولى إلى قريته كان قد بلغ هذه المرحلة الأخيرة، مرحلة التمني والحسد والتعلق بمظاهر الترف والأبهة، وقد فارقته سذاجة الريف وبساطته وقناعته، وصار يضيق بالعيش الضنك الذي تعيشه أسرته على غلة أرض لا تزيد على ثلاثة آلاف فرنك سنوياً. وكان يشعر أن مستقبل أسرته الكبيرة ذات الاسم النبيل والدخل الضئيل متعلق بمستقبله الشخصي إلى حد كبير. وكان هذا مضافاً إلى تفاصيل كثيرة من دلائل الضيق المالي كشف لعينيه عنها القناع بعد تلك السنة التي خبر فيها الحياة في باريس – كانت هذه الدلائل دافعاً إضافياً له على الاعتقاد بأن

أمامه أمراً واحداً لا محيص له عنه: هو النجاح الباهر السريع في الحصول على مركز ممتاز وجاه واسع، حتى غداً الشاب الريفي شعلة متقدة من الطموح.

وكان الفتى ككل ذي نفس كبيرة لا يريد أن يدين بنجاحه لشيء عدا همته ومواهبه. بيد أنه تعلم من السنة التي قضاها في باريس أن المواهب وحدها لا تذهب بصاحبها بعيداً في مضمار النجاح الاجتماعي. وتعلم أيضًا مبلغ ما للمرأة من النفوذ والتأثير في ذلك المضمار، فعزم على التزود لنفسه بسند نسوي يعتد به في ذلك الكفاح الذي انتواه.

وكان للفتى عمة هي مدام دي مارسياك كانت لها فيما مضى في البلاط قدم وعرفت هناك أعظم الرؤوس وأعرق الأنساب. فاتجه إلى تلك العمة يسألها المعونة. فنثرت كنانتها من المعارف بين سيدات العاصمة وعجمت أعوادها عودا عودا فاستقر رأيها على أن أنفع هاتيك السيدات لابن أخيها هي الحسيبة النسيبة «فيكونتس دي بوسيان» فحملته إليها خطاباً على الطريقة القديمة توصيها به وتطلب إليها أن تدفع بالفتى في مراقي الحياة الأرستقراطية الاجتماعية.

فلما آب إلى باريس في مفتتح العام الدراسي التالي بادر بإرسال الخطاب إلى الفيكونتس فجاءه جوابها على صورة دعوة إلى حفلة راقصة بقصرها في الليلة التالية، وكان ذلك في أواخر نوفمبر من سنة ١٨١٩.

وفي تلك الليلة أقبل الشاب إلى بنسيون فوكير في الساعة الثانية

صباحاً، وكان قد عاهد نفسه وهو في نشوة الرقص أن يعوض هذا الوقت الضائع في اللهو بإحياء الليلة ساهرا إلى الصباح ليستذكر ما فاته من دروسه، فلما بلغ حجرته خلع ملابسه وأوقد النار ليستدفئ واستعد للانصراف إلى كتبه وقد زودته بهجة اللهو والزهو بدفعة من النشاط، ولكنه واجه الكتاب المفتوح بنظر شارد لأن أحلاما من نوع آخر كانت قد استأثرت بلبه رغم أنفه.. فقد أدرك من هذا الرقص الحافل أن الفيكونتس بوسيان ملكة من ملكات المجتمع الباريسي وأن دارها من أفخم الدور في حي سان جيرمان، وأنها باعتبار اسمها وثروتها من أبرز شخصيات الأوساط الارستقراطية.. فأي حظ قد أتاح له وهو الفتى الريفي الفقير أن تفتح أمامه أبواب هذا القصر الكبير وأن يستقبل فيه بالعطف والتقدير؟ وإنه لموقن أن هذه الدعوة تعد تكريما ضخما لمثله فالدخول إلى صالونات ذلك القصر المذهبة شرف عظيم لا يناله إلا الأكفاء لمعاشرة النبلاء.. وهو يدري أيضًا أن قبوله في ذلك القصر هو بمثابة تصريح نافذ بالمرور من جميع الأبواب والدخول إلى أرقى البيوتات في الوسط العالي من العاصمة الفرنسية.

والحق أن الفتى قد بهر بما رأى فلم يكد يبادل الفيكونتس بضع عبارات حتى وجد نفسه غريقا في خضم من الفاتنات الساحرات، ولم يلبث أن ميز بينهن شابة فينانة تكفي النظرة الأولى إليها لإلقاء أي شاب صريعا تحت قدميها، وتلك هي الكونتس «أنستازي دي ريستو» التي كانت معروفة بأنها صاحبة أجمل طلعة في باريس، فهي طويلة القامة حلوة القسمات رشيقة الحركة، لها عينان سوداوان كبيرتان، ويد جميلة، وقدم

صغيرة وإذا تحركت خلتها تتوقد بنار حامية من فرط الحيوية.. وهي إلى هذا عبلة لا عيب في تكوين جارحة من جوارحها وليس في امتلائها ما يوحي باتهامها بالبدانة أو الثقل، وكانت هذه الصورة هي الحلم الذهبي الذي طالما داعب خيال الفتى جيراستنياك.. وقد احتال حتى سجل اسمه مرتين في قائمة مراقصيها واستطاع أن يبادلها بضع كلمات خلال الرقصة الأولى:

– أين ترى يتاح لي أن أراك ثانية يا سيدتي؟

– في أي مكان، في الغابة، أو في المسرح أو في بيتي.

واجتهد الفتى بعد ذلك أن يتقرب إليها بقدر الإمكان، فلما قال لها إنه من أبناء عمومة الفيكونتس دي بوسيان وجد لديها استعداد يقرب من التهافت لدعوته لزيارتها، وكانت ابتسامتها ساعة افتراقهما من الرقة والظرف بحيث اعتقد الفتى أن تلك الزيارة أضحت من الوجهة الاجتماعية حتما لزاما.

ويمكننا أن نتصور مبلغ الفرحة الطاغية التي استولت على الفتى الذي حقق من الأحلام في ليلة واحدة فوق ما كان يتمناه في عام: فقد فتح له بيتان من أرفع بيوت باريس عمادا، والبقية بعد هذا آتية لا ريب فيها، ثم هو قد لقي فاتنة أحلامه وحظي منها بما يملى له من حبال الآمال فأخذ يتخيل المشاهد بعد المشاهد من مستقبله السعيد حتى نبهته من هذه الأحلام المعسولة آهة حرى كآهات محكوم عليه بحمل عبء لا طاقة له

به، آهة سرت في صمت الليل الساجي فكان لها في حنايا الفتى الحالم بالسعادة والحب صدى هائل حتى لقد خالها حشرجة النزع من رجل يحتضر.. ففتح الباب برفق، فرأى في الدهليز خيطاً من النور ينساب من تحت باب الأب جوريو.. وخشي الفتى أن يكون جاره الشيخ قد ثقلت عليه علة طارئة فوضع عينه على ثقب المفتاح ودقق النظر في الغرفة، فرأى – ويا هول ما رأى! رأى الرجل الشيخ الذي خشي عليه المرض منصرفا إلى عمل إجرامي من واجبه نحو المجتمع أن يتقصى حقيقته.. رأى الشيخ جوريو منصرفا إلى الضغط بكل قوته على فنجان ووعاء من الفضة المذهبة منقوشين نقشا فاخرا محاولاً أن يجعل منهما سبيكة لا تتميز لها صورة أو نقش.. فلما رأى الفتى ذراعي الشيخ ترتجفان من شدة الضغط قال في نفسه:

– إنه لص ولا ريب أو هو ضالع مع اللصوص لتصريف ما يسرقون.. أتراه لهذا يتصنع الفقر والبلاهة حتى يخفي عن الناس حقيقته؟

وعاد الفتى إلى ثقب الباب يدقق منه النظر مرة أخرى فإذا الشيخ قد وصل إلى مرحلة دحرجة السبيكة فوق المائدة لكي يجعل منها قضيبا مستديرا.. وراعه أن الشيخ لا يجد مشقة كبيرة في هذا العمل، فهتف الفتى في عجب شديد وقد رأى نجاح جوريو في تشكيل القضيب:

– إنه في قوة أوغسطس ملك بولندا..

ولكن أدهشه أكثر من هذا الذي رأى من دلائل قوة الشيخ أنه

أخذ يتأمل نتيجة عمله بدموع مدرارة تسيل على خديه! ثم نفخ الشمعة وسمعه إيجين يئن أنينا شديداً وهو يستلقي على فراشه ثم يهتف بصوت مختلج أجش مسموع:

– يا للطفلة المسكينة

فسبق إلى وهم الشاب أن بالرجل مسا، وآثر أن يكتم ما رأى بعض الوقت حتى يتحرى الحقيقة ولا يتعجل التشهير بجاره المسكين.

وتأهب الشاب للعودة إلى غرفته بيد أنه سمع على حين غرة صوتاً غامضا يشبه خفق الخفاف صاعدة الدرج، فأرهف أذنيه وتبين بالفعل صوت أنفاس رجلين، فعجب كثيرًا أنه لم يسمع صوت فتح الباب الكبير ولأنه يعلم أن الخادم كريستوف أحكم إغلاق الباب بالمزلاج على أثر حضوره، ثم رأى في الحال ضوءا في الدور الثاني في حجرة فوتران فهبط بعض درجات واسترق السمع وطرق أذنيه رنين نقود، ثم أطفئ النور وسمع الأنفاس تتردد في الظلام مرة أخرى هابطة الدرج، وفتحت مدام فوكير نافذة مخدعها وصاحبت:

– من هناك؟

فأجابها فوتران بصوته العميق:

– هذا أنا عائداً من الخارج يا ماما فوكير..

وهز الفتى رأسه وقال لنفسه:

– كم في جوف الليل من أعاجيب! حقاً أنه ينبغي على المرء أن يفتح عينيه جيداً ليعرف ما يدور في بلد عظيمة مثل باريس أسرارها أكثر بكثير من ظاهر أمرها.

وهكذا سلبت أحلام السعادة التي ألهمته إياها مدام ديرستو ثم سلب الشيخ جوريو بأناته وعجيب تصرفاته وسلبت الأصوات الخفية في ظلام الخان ما كان يدخره الفتى لتحصيل مواد القانون في ليلته النابغية، فأوى إلى فراشه متعب الأعصاب ونام نوما عميقا دون أن يقرأ حرفاً واحداً.

أخبار وأسرار

وفي الصباح التالي كانت باريس ما تزال مغطاة بعباءة كثيفة من الضباب الذي يهبط عليها أثناء الليل أحيانا، حتى تسودها عند الصبح ظلمة حالكة يضل فيها أكثر الناس خبرة بمعالم الطريق، ويتأخر فيها أشد الناس تدقيقا عن مواعيد أعمالهم، فإنه يظن أن الساعة الثامنة من الصباح حين تكون في الواقع قد آذنت بالظهيرة.

لهذا كانت الساعة قد بلغت منتصف العاشرة ولم تكن مدام فوكير قد غادرت فراشها. وكان الخادم كريستوف والطباخة البدينة سيلفي وقد هبا من نومهما متأخرين عن مألوف عادتهما جالسين يتناولان قهوة الصباح وعليها طبقة سميكة من القشدة التي اختلساها من اللبن المعد للتقديم للنزلاء بعد أن أسرفا في إليه بعد ذلك حتى لا تكتشف مدام فوكر أمر ذلك الاختلاس وقال كريستوف وهو يغمس لقمته الأولى في قدح القهوة:

– سيلفي. لقد حضر رجلان الليلة للاجتماع بالسيد فوتران مرة أخرى، فإذا سألتك سيدتنا تجاهلي كل شيء. فهو رجل لا بأس به.

– وهل أعطاك شيء؟

– أعطاني أول الشهر مائة سنتيم، وهي نفحة تحمل في طواياها المقصود منها، وهو الكتمان.

– إنه ومدام كوتير هما اللذان لا يدققان فيما يبذلان لنا، ولكن الباقين يودون لو استردوا باليسار ما يعطوننا باليمين.

– وماذا يعطوننا؟ شيئاً لا يسمن ولا يغني من جوع! فالأب جوريو أخذ يطلي حذاؤه بنفسه طيلة العامين الماضيين. وهو على كل حال خير من بواريه القذر الذي لا يطليهما على الإطلاق، فهو يتمنى لو تناول سائل الدهان بدل أن يطلي به جلد حذائه المتشقق، وأما الطالب الريفي فيعطيني أربعين سنتيما لا تكفي لما يستهلك على طلاء حذائه من الفرش، ثم هو يبيع ملابسه القديمة.

– رباه. الساعة قد بلغت العاشرة إلا ربعا، فها هي ساعة الكنيسة تدق.

– وما الضير؟ لقد خرج النزلاء جميعاً. أما مدام كوتير وربيبتها فمضتا إلى الكنيسة لحضور قداس الساعة الثامنة في بيعة القديس إيتيان. وأما الأب جوريو فخرج متأبطا شيئاً في لفافة. وأما الطالب فلا يعود إلا عند انتهاء محاضرته بعد العاشرة. وقد رأيتهم جميعاً يخرجون وأنا أكنس السلم، وقد أصابني الأب جوريو بصدمة شديدة بالذي كان يحمله، فهو شيء صلب كالحديد.. يا للرجل المسكين، فهو لا يتركونه في سلام مع أنه خير منهم كلهم مجتمعين. وهو إذا كان لا يعطيني شيئاً ذا بال، فالسيدات اللاتي يبعثني إليهن على جانب كبير من الوجاهة وينفحنني هبات كبيرة.

– أتعني أولئك اللواتي يزعمهن بناته؟ إن له منهن حفنة كبيرة.

– إني لم أذهب أبداً سوى إلى اثنتين هما بعينهما اللتان تأتيان إلى هنا.

– هذه سيدتنا تتقلب في فراشها، وستقيم الدنيا وتقعدها فمن الخير أن أذهب إليها، فخذ بالك من اللبن واحذر أن تعبث به الهرة.

وصعدت سيلفي إلى سيدتها التي ابتدرتها بقولها:

– ما هذا يا سيلفي؟ العاشرة إلا ربعا؟ كيف تركتني أنام إلى هذه الساعة؟ إن هذا لم يحدث لي من قبل. أعطني المشد واذهبي بسرعة لإعداد الإفطار.

وإن هي إلا بضع دقائق حتى هبطت مدام فوكير الدرج لتجد الهرة قد انهمكت في لعق اللبن من بعض الآنية بكل همة ونشاط، فصاحبت بها:

– ميستيجريس!

فهربت القطة ولكن لتعود بعد لحظة فتتسمح بساقي سيدتها التي نادت سيلفي وقالت لها:

– انظري ماذا فعلت القطة؟

– لا تجزعي يا سيدتي، فسنصنع من هذا اللبن قهوة للأب جوريو وسأعوض ما نقص من اللبن بالماء القراح، وثقي أنه لن يلحظ الفرق لأنه لا ينتبه إلى شيء أبداً حتى ولا إلى ما يأكل.

وفي هذه اللحظة سمع جرس الباب ودخل فوتران القاعة متغنيا

بصوته العريض العالي بأغنية شعبية، قطعها ليبتدر صاحبة الخان بقوله:

– عمي صباحاً يا ماما فوكير

ثم طوقها بذراعيه، وأخذ يساعدها في إعداد المائدة وهو يوجه إليها الدعابات المرحة.. ثم صاح فجأة:

– لقد رأيت اليوم شيئاً عجباً.

– وما هذا؟

– رأيت الأب جوريو في شارع ولية العهد في منتصف التاسعة هذا الصباح عند دكان صائغ ممن يشترون الفضيات القديمة، فوقفت أنتظر ماذا عساه يصنع فإذا هو يتجه بعد ذلك إلى منزل مراب مشهور اسمه كوبسك من أخس المرابين اليهود، لا يعجزه أن يبيع عظام أبيه إذا وجد في هذا نفعا يعود عليه من وراء ذلك.

– وماذا عسى الأب الأب جوريو أن يفعل عنده؟

– لا شيء طبعاً سوى أن يحاول إصلاح ما تورط فيه من خراب وإفلاس وديون بسبب تهافته على هاتيك الفتيات...

وفي هذه اللحظة صاحت سيلفي:

– هذا هو

وسمع الأب جوريو يصيح:

– تعال يا كريستوف معي إلى فوق

وتبع كريستوف الأب جوريو ولكنه لم يلبث أن هبط وحده فسألته سيدته:

– إلى أين يا كريستوف؟

– في حاجة للسيد جوريو

فانتزع فوتران من يده مظروفا كان فيها وقرأ العنوان بصوت عال:

– إلى الكونتس أنستازي دي ريستو

– وإلى أين ستحمل هذا الخطاب؟

– إلى شارع هيلدر على ألا أسلمه إلا ليد الكونتس شخصيا

فرفع فوتران المظروف أمام عينيه في مواجهة الضوء وتساءل:

– وماذا فيه؟ أورقة نقد؟ كلا! بل إيصال مخالصة. رباه! إنه رجل شهم خدوم. اذهب الآن يا كريستوف بهذا الخطاب وثق أنك ستتلقى هبة سخية.

وكانت المائدة قد أعدت في ذلك الوقت تقريباً، فلم تلبث مدام كوتير وفيكتورين أن دخلتا. فسألت مدام فويكر:

– أين كنتما هذا الصباح؟

فأجابتها مدام كوتير وهي تجلس أمام الموقد لتدفئ قدميها:

– كنا نصلي في كنيسة القديس إيتيان، فاليوم هو موعد توجهنا كما تعلمين للقاء والد فيكتورين، فالفتاة واجفة

– خير إن شاء الله.. تدفئي يا فيكتورين..

وقرب فوتران مقعدا للفتاة من النار وقال لها:

– جميل أن يصلي المرء كي يرقق الله قلب الوالد، ولكن هذا وحده لا يكفي، فأنت بحاجة إلى صديق يحسن التفاهم مع هذا القدم، فرجل مثله يملك ثلاثة ملايين لا يكون إنساناً إذا ضن عليك ببائنة حسنة.. فالفتيات الحسان لا بد لهن من بائنات في هذا الزمان.

فرشقته الفتاة بنظرة يترقرق فيها الدمع وهتفت به:

– بالله سيدي إذا كانت لديك وسيلة ما للاتصال بأبي أن تخبره أن عطفه الأبوي وشرف والدتي أغلى عندي من كل ما في العالم من أموال.

وفي هذه اللحظة هبط من أعلى جوريو والآنسة ميشونون وبواريه في وقت واحد.. ولعل رائحة الشواء هي التي اجتذبتهم.. فلما جلس الجميع إلى المائدة دقت الساعة العاشرة، وسمع وقع خطوات الطالب الريفي مقبلا من الخارج، وبعد أن حيا جليس إلى جوار الأب جوريو وقال وهو يتناول

قطعة طيبة من الشواء وكسرة ضخمة من الخبز ظلت مدام فوكير مثبتة فيها عينيها لتقدر وزنها وتسومها:

– لقد حدث لي شيء خارق فقد كنت بالأمس في مرقص أقيم في دار ابنة عم لي – الكونتس دي بوسيان – وهي دار بالغة الفخامة فاخرة الأثاث والرياش وكانت المأدبة من أورع ما يكون وكنت أنا شخصيا كأنني ملك زماني؛ فقد راقصت أجمل حسناء بين الحاضرات، كونتس ساحرة، هي ولا شك أشد من رأيتهن في حياتي فتنة.. إنها حورية من حوريات الأساطير تتألق بهاء وتشرق سناء.. وليس هذا عجيبا، ولكن العجيب أنني رأيتها هذا الصباح سائرة على قدميها في شارع «دي جرى» فخفق قلبي خفقانا عنيفا، وخطر لي..

فقاطعه فوتران بقوله:

– إنها كانت قادمة إلى هنا؟ ها ها! لعلها يا صاح كانت بسبيلها إلى زيارة المرابي «كوبسك» فلو قدر لك أن تنبش صدور غانيات باريس، لوجدت المرابين يشغلونها أكثر مما يشغلها العاشقون.. إن صاحبتك يا صديقي هي الكونتس إنستازي دي ريستو، وتقيم في شارع هلدر!

فما سمع الطالب هذا الاسم حتى حملق في فوتران، أما الأب جوريو فرفع رأسه فجأة وجعل يحدق في المتحادثين تحديقا يفيض بالقلق والاهتمام بحيث استرعى دهشة سائر النزلاء وقال:

– إذن سيصل كريستوف متأخراً ما دامت قد ذهبت إلى كوبسك.

وكان صوته ظاهر الجزع.. فمال فوتران على مدام فوكير وهمس لها:

– لقد صدق حدسه..

ومضى جوريو يتناول طعامه بطريقة آلية غير منتبه إلى ما يأكل، فقد كانت الحيرة والقلق ظاهرتين عليه بجلاء.. أما الطالب فقال بدهشة:

– ومنذا الذي أخبرك باسمها بحق الشيطان يا سيد فوتران؟

– على رسلك! فهذا الأب جوريو يعرف كل شيء عن الموضوع، فلماذا أجهله أنا؟

– السيد جوريو؟

وتنبه الشيخ المسكين فتساءل:

– ماذا هناك؟ أهي إذن كانت باهرة الحسن ليلة أمس؟

– من؟

– مدام دي ريستو..

وهمست مدام فوكير لجارها فوتران:

– أما ترى الرجل الفاني المتصابي كيف تبرق عينها؟!

وهمست الآنسة ميشونو في أذن الطالب:

– هو إذن يحوزها حقاً..؟

ولكن الفتى لم يلق بالها لكلامها، بل أجاب جوريو الذي كان يمعن النظر:

– أجل! إنها كانت أبدع حسناً مما يتصور العقل.. ولولا وجود مدام دي بوسيان لكانت ملكة المرقص ولا مراء، فقد كانت محور اهتمام الرجال كافة.. فاسمي مثلاً كان الثاني عشر في قائمتها، ولم تفتها رقصة واحدة، حتى كانت الحاضرات ينشققن من الغيظ..

وعلق فوتران على هذا الحديث بقوله:

– هكذا النساء العظيمات الحسناوات في باريس: بالأمس ملكة مرقص في قصر دوقة، واليوم ذليلة على باب مراب دنيء.. فلا تفوتنك حكمة هذه الظاهرة الجديدة: فالباريسية اليوم إذا لم يسعفها زوجها بنفقات بذخها باعت نفسها لتحصل على المال.. فإذا أعجزها هذا بحثت عن المال بأي وسيلة، ولو أدى بها هذا إلى انتزاع اللقمة من فم أمها!

واكفهر وجه الأب جوريو، بعد إشراق كان يكسوه وهو يصغي للطالب

أما فيكتورين فكانت منصرفة عن هذا الحديث كله بالخطوة التي كانت مزمعة أن تقدم عليها. وأشارت إلى أمها مدام كوتير أن الوقت قد حان لكي تنهض وتلبسي ملابس الخروج، فلما انصرفت السيدتان

انصرف معهما الأب جوريو، فقالت مدام فوكير للباقين بحرارة:

– أما رأيتم؟ لقد وضح بما لا يدع مكاناً للشك أن الرجل قد هدم نفسه وخسر ثروته تحت أقدام هاتيك النسوة...

فصاح إيجين دي رستنياك:

– يستحيل عليك أن تقنعيني أن الكونتس دي ريستو الحسناء ذات صلة بهذا الأب جوريو فأجابه فوتران بتؤدة:

– إن أمثال هذا الرجل تستقر في آذانهم فكرة لا سبيل إلى نزعها منها، وهي أنه لا يروي ظمأهم إلا ما ينبوع معين، قد يكون ملحا أجاجا، وفي سبيل رشفة من هذا الينبوع قد يبيع المرء منهم زوجته وبيته، بل قد يبيع روحه للشيطان! وهذا الينبوع يختلف اسمه باختلاف الناس، فهو الميسر عند فريق منهم، وهو المضاربة في المصفق «البورصة» عند فريق آخر، وهو الموسيقى أو جمع التحف ولوحات الصور عند فريق ثالث.. وهو امرأة بعينها عند فريق رابع، فلو قدمت للواحد منها نساء الأرض كافة لما عدل بهن هذه المرأة المعينة التي قد لا تحبه، بل قد تسيء معاملته إلى أقصى حد.. والأب جوريو من هذا الفريق الأخير.. وأعتقد أن الكونتس تأمن جانبه لالتزامه الكتمان، ولبعده عن إثارة الشبهات في محيطها الراقي، فهي تستغله مادياً.. وأما الشيخ المسكين فهو يتقد حبا لها، فلا يشغل ذهنه خاطر سوى هواها، وفيما عدا هذا فهو كما ترى دابة عجماء.. أما سر ما حدث اليوم، فهو أن الأب جوريو قد حمل إلى

الصائغ صحافا فضية لصهرها، ثم توجه إلى المرابي كوبسك في شارع دي جرى.. فماذا فعل عندما آب إلى هنا؟ أرسل كريستوف إلى دار الكونتس دي ريستو.. وقد أرانا كريستوف العنوان على مظروف بداخله إيصال مخالصة.. وما دمت أنت قد رأيتها بنفسها لدى نفس هذا المرابي، فالمسألة لا شك لها صفة الاستعجال.. ولا شك أيضًا أن الأب جوريو قد سدد لها دينها بشهامة.. أجل إن هذا من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى استنتاج.. وهذا يدلك يا صديقي طالب العلم على أن صاحبتك الكونتس كانت وهي تضحك أمس وتمرح وترقص وتتخايل وتتمايل إنما كانت في الواقع تتقلب على جمر الغضا قلقا على دينها المذل.. أو لعله دين عشيقها!

– لقد جعلتني على أحر من الجمر ونفسي في لهفة لمعرفة الحقيقة عن يقين.. وإني لذاهب غداً إلى دار الكونتس دي ريستو..

– ولعلك واجد الأب جوريو عندها، لقبض مكافأته على عمله النبيل.

وحينئذ صاحبت مدام فوكير في دهشة بالغة:

– أتقول إن الأب جوريو حمل صحافه الفضية إلى الصائغ ليصهرها؟

وسأل ايجين في لهفة:

– هل كانت على عطائها حمامتان تتلاثمان؟

فقالت صاحبة الخان:

– إنها عند صنو حياته...

فقال فوتران:

– ها أنت ذا ترى إلى أي حد بلغ هوس الرجل بهذه المرأة.

وقام الطالب إلى حجرته، وعلا فوتران الخان. وما هي إلا دقائق حتى استقلت مدام كوتير وفيكتورين عربة أجرة، وقدم بواريه ذراعه للآنسة ميشونو ليتمشيا قليلاً في حديقة النباتات... فقالت سيلفي:

– إنها أول مرة يخرجان فيها معاً، وهما صنوان يبوسة ونحولا وصلابة، حتى لأخشى إذا اصطدما أن ينقدح عنهما الشرر!

فلما عاد الأب جوريو في الساعة الرابعة، لاحظ احمرار عيني فيكتورين. وكانت مدام فوكير تصغي إلى قصة زيارتها الفاشلة لوالدها ذلك الصباح. فقد ضاق صدر السيد «تايفير» بمحاولات ابنته ومدام كوتير أن تقابلاه، فسمح لهما أخيراً ببضع دقائق، لكي يعرفها وجهة نظره بصفة نهائية..

واستطردت مدام كوتير تقول لها:

– عجباً يا سيدتي أنه لم يسمح لفيكتورين بمجرد الجلوس، فظلت واقفة طول الوقت. وكان يوجه إلي الكلام، لا في غضب – فليته أظهر هذا الانفعال – بل بكل هدوء قاتل، فقال إننا نضيع وقتنا وجهدنا سدى بطلب الاجتماع به، وأن الآنسة الصغيرة – فهكذا يدعو ابنته! – تنزل بنفسها في نظره بمثابرتها على ملاحقته – وهي لا تطلب مقابلته إلا مرة

واحدة في كل سنة! – وإنه بما أن والدة فيكتورين لم تكن لها ثروة خاصة، فلا حق للفتاة عنده في شيء.. وجعل يضرب على هذه النغمة حتى بكت المسكينة، وألقت بنفسها تحت قدميه وقالت له بشجاعة إنها إنما تطلب مقابلته من أجل شرف والدتها فحسب، وأنها على أتم استعداد لإطاعة جميع رغباته بغير تذمر، وتوسلت إليه بكل تذلل أن يقرأ الكلمات الأخيرة التي سطرتها له والدتها في ساعة موتها.. ومدت يدها إليه بالخطاب في تضرع يفتت الأكباد، لست أدري من أين ألهمها الله عباراته الرقيقة المؤثرة التي جعلتني أبكي بحرارة... فهل تدرين يا سيدتي ماذا كان يفعل هذا الوغد وهي تقول له هذا الكلام؟ كان يقص أظافره! ثم تناول الخطاب الذي سطرته مدام تايفير المسكينة بدموعها وألقى به فوق رف الموقد قائلاً «لا بأس..» وهمّ أن يقدم يديه لابنته فينهضها من مجثمها، ولعله أيضًا كان سيقبلها، ولكنه رد يده في آخر لحظة!.. أليس هذا فظيعا!. ثم دخل ابنه العتل، ولم يلتفت إلى شقيقته!

فصاح الأب جوريو:

– هما حيوانات بهيمان إذن!

واستطردت مدام كوتير، غير ملقية بالا إلى تعليق الشيخ المسكين:

– وحينئذ خرج الوالد والولد بعد أن انحنيا لي واعتذرا لارتباطهما بموعد سابق.. وكان هذا ختام زيارتنا.. وعزائي أنه رأى ابنته. وإني لأعجب كيف ينكر نسبتها إليه. وكيف يخفي شبهها الكبير به، فإنها صورة منه طبق الأصل.

الجولة الأولى

في اليوم التالي ارتدى راستينياك أفخر ثيابه، وغمر نفسه بالعطر، ثم توجه في نحو الساعة السادسة مساء إلى دار مدام دي ريستو ، وكان أثناء الطريق يحاور نفسه حالمًا بأقصى ما يمكن أن يتخيله من السعادة على عادة الأغرار من الشباب حين يعشقون أو حين يتصورون أهدافهم المأمولة على العموم، فإنهم يرون سبلهم إلى غاياتهم مفروشة بالورد خلوا من العقبات والمعوقات فضلاً عن الأخطار. وكان يمشي في حذر شديد خوفاً على حذائه اللامع أن يتسخ، ويعد في ذهنه العبارات الخفيفة الظريفة التي يجيب بها على أسئلة مدام دي ريستو كما يفترضها، ويراجع تلك العبارات للتنقيح والتصحيح كي تكون تمهيدا صحيحاً لإعلانها بهواه عندما يأون الأون.

ولكن لا يمنع الحذر من القدر، فقد وقع الذي كان يخشاه واتسخ نعلاه، واضطر إلى مسحهما وتنظيف سرواله عند الباليه رويال، وقال لنفسه بحسرة وهو يقبض بقية قطعه من ذوات المائة سنتيم كان قد حملها معه على سبيل الاحتياط لغدرات الطوارئ:

– لو كنت غنياً لذهبت إلى هناك في عربة، ولأتيح لي أن أتفرغ للتفكير والتدبير، وأخيراً وصل إلى شارع هلدر وطلب مقابلة الكونتس دي ريستو. وتقبل في حنق النظرة المتعالية التي صبها عليه خدم القصر حين

رأوه يعبر الفناء راجلا دون أن يسمعوا صوت عربة تقف بالباب. وقد تأثر لهذه النظرة بحيث طارت من ذهنه جميع العبارات والتدبيرات التي ظل يكدسها فيه استعداد لهذا اللقاء. ووقف المسكين ينتظر عودة الوصيف بالإذن وهو ينظر من نافذة غرفة الانتظار. وأخيراً عاد الوصيف ليقول:

– سيدي. إن سيدتي في حجرة زينتها مشغولة ، ولكن إذ شاء سيدي فليتفضل بالدخول إلى الصالون، فتحت زائر آخر ينتظر سيدتي فيه.

وتقدم راستينياك ففتح الباب الذي دخل منه الوصيف بكل ثبات، لكي يبرهن له أنه على علم وصلة بالبيت وأهله، ولكنه ألفى نفسه في حجرة مزدحمة بالمصابيح وأدوات التدفئة ومناشف الحمام، فكانت الضحكات المكتومة التي سمعها صادرة من الدهليز هي القاضية على البقية الباقية من هدوئه وثقته بنفسه. ثم قال له الوصيف في ذلك الإجلال المبالغ فيه الذي يبدو في الواقع مزيداً من السخرية اللاذعة:

– من هنا يا سيدي من هنا.

وتراجع راستينياك كما أشار إليه الوصيف ولكن ارتباكه جعله يصطدم ببعض الأدوات فكاد يقع على الأرض، فسنحت له الفرصة ليرى بابا يفتح في آخر الدهليز الذي تفضي إليه الحجرة، ويسمع صوت مدام دي ريستو وصوت الأب جوريو معاً، ثم صوت قبلة! وتبع الوصيف فاخترق قاعة المائدة إلى الصالون الأول حيث جلس في مواجهة النافذة المطلة على الفناء لكي يتاح لأن يتحقق هل الأب جوريو هو الذي كان

مع الكونتس أم لا؟ وكان قلبه يدق دقا متداركا عنيفا وقد قفزت إلى ذاكرته تعليقات فوتران وآراؤه. وكان الوصيف لا يزال بالباب فاتجه إليه شاب بالغ الأناقة وقال له بصبر نافد:

– إني ذاهب يا موريس، فقل لسيدتك الكونتس إنني انتظرتها أكثر من نصف ساعة

ثم اتجه إلى النافذة التي كان يطل منها إيجين، ولعله ما فعل ذلك ليطل على الفناء بل ليتبين وجه الفتى. وأجابه موريس قائلاً:

– يحسن بسيدي أن ينتظر برهة أخرى، فقد فرغت سيدتي مما يشغلها

وفي هذه اللحظة ظهر الأب جوريو متجها إلى الباب الخارجي عبر الفناء، خارجاً من باب السلم الصغير، ومنهمكا في فتح مظلته دون أن يلقي بالا إلى الباب الكبير الذي فتح على مصراعيه ليدخل منه شاب يقود عربة خفيفة أنيقة، ولم ينتبه إلا في اللحظة الأخيرة لكي ينجو من الوقوع تحت سنابك الخيل. والتفت الشاب صاحب العربة نحوه في غضب، حتى إذا تبينه ألقى إليه تحية شبه مغتصبة أجابه عليها الأب جوريو بتحية ودود تطفح بالطيبة.

وقد مرت هذه الأحداث بسرعة البرق الخاطف، والطالب منصرف إليها حتى نبهه صوت الكونتس في الحجرة وهي تقول بلهجة يختلط فيها العتاب بالدلال:

– أكنت تنوي الانصراف حقاً يا مكسيم؟

فالكونتس لم تتنبه إلى حضور العربة وسائقها الوجيه. أما راستينياك فاستدار ليرى الكونتس في ثوب من الكشمير الأبيض فيه عقد وردية، وشعرها متروك على سجيته، والعطر يتضوع منها. فلا ريب أنها خارجة من الحمام الذي كسى جمالها الخلاب بضرب من الطراوة زادها فتنة على فتنة، أما عيناها فكانتا لامعتين لمعانا رطيبا. فلما تناول مكسيم يديها ليقبلها تبين راستينياك وجه مكسيم، وتنبهت الكونتس إلى وجود راستينياك، فقالت له بلهجة لا يخفى مغزاها على اللبيب:

– أهذا أنت يا مسيو دي راستينياك؟ كم أنا مسرورة أن أراك الآن هنا!

وجعل مكسيم ينقل النظر إلى إيجين والكونتس بما معناه:

– أظن يا عزيزتي أنك لن تعدمي وسيلة لإجلاء هذا الفضولي. خلصينا منه بالله

وكانت الكونتس ترمق هذا المكسيم الأنيق الرقيع بنظرات ملؤها الامتثال، من قبيل هذه النظرات التي تفضح مكنون سر المرأة وهي لا تدري، فأحس راستنياك بحقد شديد على هذا الشاب؛ فشعره الأشقر المجعد تجعيدا جيداً قد أشعره بمبلغ ما عليه شعره هو من اضطراب وبشاعة. ثم نعلاه الثمينان الساطعان ببريق رائق قد أطلعاه على مبلغ حرمان نعله من الأناقة واللمعان برغم كل ما بذله أثناء الطريق من عناية وحذر، ثم أي فرق هائل بين ملابس مكسيم وملابسه، فملابس مكسيم

دقيقة محبوكة تبرز أجزاء جسمه فكأنه فتاة دقيقة الخصر بارزة الصدر.

وبدون أن تنتظر ردا من إيجين، اتجهت مدام دي ريستو إلى الصالون الآخر، وتبعها إليه مكسيم.. فتبعهما إيجين محنقا فوقف ثلاثتهم قرب المدفأة في وسط الصالون الكبير. وكان الطالب يعلم عن يقين أن وجوده يضايق هذا الشاب السمج، ولكنه عزم على المجازفة بإغضاب مدام دي ريستو في سبيل إغاظته، وقد أدرك علاقة مكسيم بها فانطوى له على كراهية الغريم لغريمه، غير عالم أن من عادة الكونت مكسيم دي تراي أن يستدرج للناس إلى إهانته، فإذا فعلوا بارزهم وقتلهم.

وإذا كان إيجين صياداً ماهرا فإنه على كل حال لم يبلغ المرتبة التي وصل إليها مكسيم من إصابة الهدف عشرين مرة من اثنتين وعشرين طلقة.

وانصرف الكونت إلى تقليب النار في المدفأة بوجه هضيم عليه غبرة السخط، فتغير وجه إسنتازي ونظرت إلى إيجين نظرة تساؤل بارد، كأنها تقول له:

– لماذا لا تمضي من حيث أتيت؟

وتصنع إيجين السرور وقال لها:

– سيدتي، لقد تعجلت المناسبة لكي أراك حتى...

ولم يتم عبارته، لأن بابا فتح ودخل منه السيد الذي دخل الفناء يقود عربة، وقد بدا عاري الرأس، فلم يحيي الكونتس وألقى على إيجين

نظرة متسائلة، ومد يده إلى مكسيم فصافحه بطريقة تنم عن أخوة دهش لها إيجين، ذلك أن أهل الريف يجهلون مناعم الحياة المثلثة الأقطاب. وقدمت الكونتس زوجها إلى الطالب قائلة:

– مسيو دي ريستو

فانحنى إيجين انحناءة عميقة واستطردت الكونتس:

– وهذا مسيو دي راستينياك، من ذوي قربى الفيكونتس دي بوسيان عن طريق آل مارسياك، وقد كان لي شرف مقابلته في حفلتها الراقصة الأخيرة.

«من ذوي قربى الفيكونتس دي بوسيان عن طريق آل مارسياك»

كانت هذه الكلمات كافية لإحداث تأثير سحري على زوجها فخرج عن فتوره وتزمته وحيا الفتى بحرارة. بل أن الكونت مكسيم أيضًا تخلى عن وقاحته وازدرائه. فكان هذا الانقلاب أوضح برهان لدى الطالب الريفي على مبلغ ما للأسماء العريقة من نفوذ في المجتمع الباريسي.

وساعدت هذه النجدة على تفتق ذهنه وحضور بديهته فعادت إلى ذاكرته العبارات والإشارات التي كان قد أعدها في ذهنه لهذه الزيارة.

وأخذ الكونت دي ريستو يتحدث إلى الفتى عن شجرة النسب التي تربطه منذ أجيال أسرته بأسرة الفيكونتس دي بوسيان حتى إذا عرف أن بين أجداده قائدا بحريا هتف به:

– أليس هو يا سيدي الذي كان يقود السفينة «المنتقم» قبل سنة ١٧٨٩؟

– هو عينه!

– إذن فهو قد كان يعرف جدي أنا الذي كان يقود السفينة واروك..

وهز مكسيم كتفيه وألقى على الكونتس نظرة مؤداها أن زوجها مادام قد أخذ في ذلك الحديث لن ينتهي منه أبداً كعادته، ففهمت أنستازي مراده وابتسمت وهي تقول له:

– تعال يا مكسيم معي فلدي شيء أريد أن أكلفك به، أما أنتما يا سيدي العزيزين فسنترككما لتبحرا على هواكما على ظهر المنتقم أو الواروك.

ونهضت فأشارت إلى مكسيم فتبعها نحو حجرة زينتها. وما أن وصلا إلى الباب حتى قطع الكونت حديثه مع إيجين وهتف بزوجته:

– أنستازي. ابقي يا عزيزتي فأنت تعلمين..

– إني عائدة، فلن تستغرق المهمة التي أريد تكليف مكسيم بها سوى دقائق.

وعادت وشيكا، فقد أدركت بفطرتها أن هذه اللحظة من اللحظات

التي تثور فيها شكوك الأزواج بقوة وإن كانت دوافع الشك غير قوية، وأدركت أيضًا أن الطالب الشاب هو المسئول عن استيلاء هذه الحالة على زوجها بإثارته اهتمامه بموضوعه المفضل وهو البحرية، فرشقت الطالب بنظرة غيظ وضيق لم يرها سوى مكسيم الذي قال للكونت والكونتس والطالب:

– أراكم مشغولين، ولا أريد أن أثقل عليكم

وانصرف، فناداه الكونت عازما عليه بالبقاء، وبادرت الكونتس باقتفاء أثره وهي تدعوه إلى العشاء، ثم بقيا في الصالون الآخر برهة طويلة على أمل أن يصرف الكونت الطالب الشاب

وكان الشاب يسمعهما تارة يضحكان وتارة يتحدثان، فبذل جهده في الظفر برضى الكونت بالمجاملات حينا وبالدعابات حينا آخر، مجتهداً في فتح أبواب جديدة للمناقشة في الأمور التي يهتم بها حتى يتبين مدى علاقة جوريو بالكونتس قبل انتهاء الزيارة. فهذه المرأة المدلهة في مكسيم، والمتسلطة على زوجها، والتي تربطها بصانع الإطرية «الشعيرية» السابق صلات غامضة، كانت تبدو له لغزا يتلهف على استجلاء خفاياه، ويضمر الطمع في الوصول إلى عرش قلبها يوماً من الأيام.

ونادى الكونت زوجته من جديد فقالت لعاشقها:

– لا فائدة يا عزيزي مكسيم، لا بد من التسليم بالأمر الواقع، فإلى هذا المساء

– أرجو يا عزيزتي أن توصدي بابك في وجه هذا الشاب الذي يضمر لك جذوة مشتعلة من الهوى يبدو وهجها في عينيه حين ينظر إليك، فهو لا شك سيلاحقك بعبارات الغرام فأضطر إلى قتله.

– هل أنت أبله يا مكسيم؟ إن هؤلاء الطلاب الأحداث من أصلح ما يكون لأداء دور مانعات الصواعق، ولن يفوتني أن أوجه شكوك ريستو وغيرته نحو هذا الشاب.

فانفجر مكسيم ضاحكاً وخرج، وأطلت الكونتس لتراه وهو يقود حصانه ويطوح سوطه في الهواء، ولم تعد إلا حينما أقفل وراءه الباب الكبير، فقال لها زوجها حينئذ:

– أليست هذه من غرائب المصادفات؟ فضيعة أسرته لا تبعد كثيرًا عن ضيعتنا في «فرتي»، وجدي وجده كانا زميلين.

فأجابت الكونتس وهي شاردة الذهن:

– يسرني أن يكون لنا أصدقاء مشتركون.

فأجابها إيجين بصوت منخفض:

– أصدقاؤنا المشتركون أكثر عدداً مما تظنين.

فحدقت فيه وسألته باهتمام:

– وكيف كان ذلك؟

– لقد رأيت منذ قليل شخصاً يخرج من عندك، وهذا الشخص جاري المباشر في الخان الذي أنزل فيه، وهو الأب جوريو.

وما أن نطق الشاب بهذا الاسم الأخير على هذا النحو حتى أخذت الكونت رجفة امتعاض وقال للشاب بحدة:

– هلا قلت «السيد جوريو» يا سيدي؟

وشحب وجه الكونتس ثم احمر وبدا عليه الضيق، ثم تصنعت الهدوء وقالت:

– من رابع المستحيلات أن تعرف إنساناً أدنى إلى قلبنا منه

ثم التفتت إلى ألبيان وقالت كأنما قد استولت عليها نزوة طارئة:

– هل تحب الموسيقى يا سيدي؟

– أحبها كثيراً.

ولكن حالته كانت قد ساءت لشعوره بأنه قد اقترف خطأ غامضا.

– وهل تغني؟

– كلا يا سيدتي

– واخسارتاه

وأخذت تدندن أغنية إيطالية

والواقع أن إيجين قد أتى أمراً إدا بذكره الأب جوريو على هذا النحو؛ فهو كشخص أدخل على سبيل التكريم الخاص إلى متحف للمصنوعات الدقيقة الثمينة يملكه هاو من كبار الهواة، ولكنه أسقط على الأرض بحركة غير موفقة صفاً أو صفين من تماثيل كانت رؤوسها محطمة وملصقة إلى أجسادها بعناية، فهو يتمنى لو انشقت الأرض وابتلعته. ورأى وجه الكونتس جامداً فاترا ونظراتها معرضة؛ فاعتذر وهمَّ بالانصراف؛ فقالت له الكونتس:

– ثق أنك ستجد الكونت وستجدني على استعداد دائماً للترحيب بك كلما خطرت ببالك زيارتنا..

فحياهما إيجين وخرج متبوعا بالكونت الذي أصر على مرافقته إلى غرفة الانتظار، فلما خرج الشاب قال الكونت للوصيف موريس:

– كلما حضر هذا السيد فلن أكون هنا لا أنا ولا الكونتس

ووجد إيجين المطر ينهمر، فما رأى عربة كانت عائدة من موكب عرس ولا تزال بها بقية من الزهور، حتى ركبها وأعطى السائق عنوان الفيكونتس دي بوسيان قريبته، ليشكرها ويوثق صلته بها ويستفسرها عما غمض عليه من أمر الكونتس دي ريستو.

محنة عاشقة

اختال الفتى وامتلأ بالزهو وهو يسمع سائق مركبته يصيح بأعلى صوته:

– افتحوا الأبواب..

فتقدم حاجب يرتدى بدلة حمراء مذهبة ففتح البوابة الكبرى على مصراعيها، وشعر راستنياك بالرضا والعربة تجتاز إلى رحبة القصر، فتقف به عند السلم. وفيما هو يهبط من العربة طرقت سمعه ضحكات بعض الخدم وهم يتندرون بعربته المعدة لموكب عرس من أعراس سواد الناس، وأعانه على إدراك مبلغ غرابة عربته، وجود عربة أخرى مطهمة أنيقة في الفناء، هي عربة بعض الزوار ولا ريب، يجرها زوج من الصافنات الجياد، يعضان النواجذ على اللجم، ويكادان يخرجان من أهابهما توقدا وقوة. ولا يمكن أن تساوي المركبة وجوادها أقل من ثلاثين ألف فرنك بحال؛ فقال الفتى نفسه:

– من هنا أيضًا يا ترى؟ لا بد أن لدى ابنة عمي «مكسيمها» هي الأخرى!

وعرف في هذه الساعة أنه يندر أو يستحيل أن يجد بين فاتنات باريس من ليس لها عشيق واحد على الأقل، فالمنافسة صعبة ومريرة.

وصعد الدرج، وهو يشعر في حلقه بغصة معترضة؛ فلما وصل إلى الباب الزجاجي فتحه خدم عليهم وقار الجد، فدخل إلى جناح الفيكونتس لأول مرة؛ فالمرقص أقيم في البهو الكبير بالطابق الأرضي لا في جناح ربة البيت الخاص بطبيعة الحال، وتسنى له أن يشهد تلك الفخامة العريقة التي تدل على أرفع ذوق وآانق أسلوب في الحياة.

ولما كانت الكونتس لا تستقبل أحداً قبل انتصاف الخامسة، فإنه لو بكر خمس دقائق لما حظي بلقائها، أما الآن فقد اقتاده الوصيف صاعدا به سلما كبيراً مفروشا ببساط أحمر سميك إلى جناح الفيكونتس التي كان يجهل عنها وعن حياتها كل شيء. مع أن هذه الحياة لها قصة شائقة شائعة على جميع الألسن في مجتمعات باريس.

فالفيكونتس عقدت آصرة العشق منذ ثلاث سنين بينها وبين نبيل من أعلى نبلاء البرتغال مكانة وأوسعهم ثورة، هو الماركيز «داجودا بنتو». وكان غراما جارفا جامعاً مانعاً. لا قبل للعاشقين بوجود طرف ثالث بينهما أو معهما، وكانت هذه الحقيقة من الوضوح بحيث اقتنع بها الفيكونت دي بوسيان نفسه، فكان قدوة للجميع في احترام هذه العلاقة إن طوعا وإن كرها، فألف الذين كانوا قد درجوا زيارة الفيكونتس دي بوسيان في الساعة الثانية بعد الظهر أن يجدوا الماركيز داجودا بونتو لديها. ولما كانت الفيكونتس لا تستطيع أن تقفل بابها في وجوههم صراحة، فقد عمدت إلى استقبالهم بفتور ظاهر، وإلى التزام الصمت التام معهم، حتى فهم الجميع أن وجوده يثقل عليها، فلم تلبث أن ألفت نفسها تتمتع بالوحدة التامة

فيما بين الثانية والرابعة بعد الظهر.

وفي المساء، عندما كانت تذهب إلى الأوبرا أو غيرها من المسارح، كان يصحبها زوجها كما يصحبها الماركيز.. ولكن زوجها كان من اللباقة بحيث يغادرهما بعد أن يقرهما في المقصورة ويذهب لقضاء السهرة مع أصحابه.

والآن نبتت في رأس الماركيز فكرة الزواج، والفتاة التي وقع عليها اختياره هي الآنسة دي روشفيد.. وشاع هذا الأمر في الأوساط الراقية، حتى لم يعد يجهله سوى شخص واحد هو الفيكونتس دي بوسيان، فهي وإن فاتحتها بعض الصديقات في هذا تلميحا، لا زالت تعتقد الأمر لغطا من تدبير حاسداتها وكيدهن، ولا أساس له من الصحة إطلاقاً.. ولكن التجاهل أو الإنكار لم يعد مجديا، لأن عقد الخطبة سينشر رسميا في وقت قريب ويطلب الإذن من الملك بالزواج بصفة نهائية.

وكان حضور الماركيز عند صاحبته هذا العصر على نية مصارحتها بالأمر، ولكن الشاب البرتغالي الوسيم لم يجد في نفسه القدرة أو الشجاعة على هذه المصارحة، فليس أشد من توجيه مثل هذا «الإنذار النهائي» إلى امرأة عاشقة.. بل إن من الرجال من يستعظم مواجهة امرأة حسناء بما يسوؤها أكثر من استعظامه لسيف مرهف يلقاه به عدوه وهو عاري الصدر.

وفي اللحظة التي وصل فيها إيجين دي رستنياك إلى دار الفيكونتس

كان البرتغالي على أحر من الجمر، تلهفا على الانصراف، لارتباطه بموعد مع خطيبته مرجئا أمر الإفضاء بالنبأ إلى الفيكونتس اعتماداً على أنه سيبلغها حتما من طريق غير طريقه هو، أو إذا كان لا بد من أن يفضي به إليها هو شخصيا، فمن الخير أن يكون ذلك في سطور يخطها، فالقلم أهون من اللسان في مثل هذه الأحوال!

فلما أعلن الوصيف إلى الفيكونتس حضور السيد إيجين دي راستنياك، استولى الفرح على المركيز داجودا بنتو، ولم تفت هذه الظاهرة عين الفيكونتس اللماحة، ذلك أن المرأة العاشقة أرهف حسا بالمخاطر التي تهدد غرامها من إحساسها بلذة الغرام نفسه.. وكان إيجين يجهل أن المرء في باريس لا ينبغي أن يزور كائنا من كان إلا بعد أن يستقصي من أفواه الخلق تاريخ البيت وتاريخ الزوج والزوجة والأبناء، حتى لا يقع في أخطاء سخيفة.. وعلى كل حال، إذا كانت زيارته السابقة قد ثقلت على الكونتس دي ريستو ومكسيم دي تراي، فزيارته هذه أنقذت الماركيز داجودا من ورطة كان لا يدري له منها مخرجاً.. فقال البرتغالي وهو يبادر إلى باب الصالون في شيء من اللهفة:

– وداعا الآن إذن..

فأجابته الفيكونتس وهي ترشقه بنظرها:

– بل إلى اللقاء هذه الليلة.. ألسنا ذاهبين إلى المسرح؟

– أظنني لا أستطيع!

فنهضت الفيكونتس ونادته ليقترب منها، غير ملقية بالا إلى إيجين الذي وقف بجوار الباب يتأمل ما حوله من طنافس ورياش لم يكن ليحلم أنها يمكن أن توجد، وهو في الوقت نفسه لا يدري ماذا يصنع بنفسه في حضرة هذه السيدة وهي لا تلتفت إليه.

وأشارت الفيكونتس بسبابتها إلى المركيز إشارة لطيفة ليحتل مقعدا مواجها لها.. وكان في هذه الإشارة من السيطرة العاطفية ما جعل المركيز يترك مقبض الباب ويجلس حيث أشارت فرمقه إيجين بنظرة لا تخلو من حسد وهو يقول في نفسه:

– هذا إذن هو الرجل صاحب العربة الفارهة والجياد العتاق! أحتم لزام إذن أن تكون للمرء جبال من الذهب حتى يظهر بنظرة من امرأة باريسية؟.

وشعر بشيطان الترف يلدغ قلبه، وبحمى الطموح والطمع تسري في دمه، وبالظمأ إلى الذهب يغص به حلقه، فإن آله يشكون مرارة الحرمان لكي يوفروا له ذلك العيش الكفاف في باريس. ولكن المقارنة السريعة بين حالته الراهنة وبين المثل المجسم الذي يشتهيه والحاضر أمامه في هذه الساعة جعلت القنوط يستولي عليه فبهت وظل قائماً حيث هو.. أما الفيكونتس فقالت للبرتغالي وهي تضحك:

– ولماذا لا تستطيع الحضور إلى المسرح؟

– لدي أعمال، وسأتعشى على مائدة سفير إنجلترا

– استأذن إذن عند حلول الموعد وتعالى

وعندما يضطر الرجل إلى الخداع يلفي نفسه وقد جرته الأكذوبة الأولى إلى سلسلة من الأكاذيب؛ فقال المركيز ضاحكاً:

– أتصرين؟

– طبعاً.

– وهذا ما كنت أريد أن أسمعه منك

وتناول يد الفيكونتس فقبلها وانصرف. وعبث إيجين بأصابعه في شعره وتهيأ لتحية الفيكونتس وقد ظنها فرغت له، ولكنها انتفضت وأسرعت إلى الردهة، ثم جرت نحو النافذة وأطلت على المركيز وهو يركب عربته، وأصاخت السمع فنما إلى أذنها الأمر الذي صدر إلى السائق:

– إلى دار المسيو دي روشفيد

فكانت هذه الكلمات هي البرق اللامع والصاعقة المنقضة على هذه المرأة التي شعرت في هذه اللحظة أنها فريسة آلام نفسية لا تقل تبريحا عن حشرجة النزع. فمثل هذه المحنة هي أقصى ما يمنى به أهل هذه الطبقة العالية.

ودلفت الفيكونتس إلى مخدعها فجلست إلى نضد وتناولت صحيفة من الورق جميلة الترقيش ورقمت عليها هذه السطور:

«ما دمت ستتعشى عند آل روشفيد لا في السفارة البريطانية ففي عنقك لي تفسير هذا السلوك، وإني في انتظارك».

وبعد أن أصلحت بضعة حروف خرج بها اختلاج يدها عن نمطها وقعت الرسالة بحرف "ك"، اختصاراً لاسمها وهو كلير دي برجولي، ودقت الجرس فحضر الوصيف للتو فقالت له:

– اذهب يا جاك في منتصف الساعة الثامنة إلى قصر مسيو دي روشفيد واطلب مقابلة المركيز داجودا. فإذا كان هناك فسلمه هذا الخطاب ولا تطلب عليه ردا. أما إذا لم تجده هناك فعد إلي بالخطاب.

– في الصالون شخص ينتظر سيدتي الفيكونتس

– آه! هذا صحيح

ثم دفعت بيدها باب الصالون ودخلت.

الدرس الأول

– عفوك يا سيدي، فقد كان علي أن أكتب كلمة صغيرة. أما الآن فأنا رهن إشارتك

ولم تكن تفقه ما تقول للفتى لأن لسان حالها كان يعني شيئاً آخر مؤداه:

– هو إذن ينوي أن يتزوج الآنسة دي روشفيد. ولكن أهو حر حتى يفعل ذلك؟ سيتحطم هذا الزواج في هذه الليلة، أو ... ولكن لا محل لاحتمال آخر

وأجاب إيجين على عبارتها المنطوقة قائلاً:

– يا بنت العم ...

– هيه؟!

ورشقته بنظرة باردة كالثلج فأدرك مقصودها فبادر إلى إصلاح خطئه وقد تضرج وجهه:

– سيدتي... اغفري لي، فإني في حاجة إلى حمايتك، وفي الشعور بقرابتك مني ما يشعرني بهذه الحماية.

فابتسمت الفيكونتس دي بوسيان، ولكن ابتسامتها كانت عليها إثارة من الحزن وقالت للفتى:

– حسناً يا ابن العم، فيم عساني أكون نافعة لك؟

– وهل تراني أعلم؟ فإن مجرد قرابتي منك، ولو من بعيد، تكفي لتزويدي بثروة طائلة من الأمجاد الاجتماعية، ثم أنت الشخصية الكبيرة الوحيدة التي أعرفها في باريس.. وفي نفسي أن أطلب إليك شرف الاتصال الدائم بك، فأكون ألزم لك من ظلك، وأطوع لك من بنانك، وعلى استعداد دائم للموت في سبيلك.

– وهل أنت مستعد لقتل إنسان من أجلي؟

– بل اثنين

– يا لك من طفل! أجل، أنت طفل لا تزال

ومسحت قطرات من الدمع خانتها خلسة واستطردت:

– ... ومثلك يعرف كيف يحب بإخلاص!

– آه ... بهذه المناسبة، لفتت نظري في حفلتك الراقصة سيدة تدعى مدام دي ريستو، وقد زرتها هذا الصباح

فابتسمت الفيكونتس وقالت:

– لابد إذن أنك سببت لها بزيارتك هذه ضيقاً.

– أجل. فأنا كما تعلمين ريفي غر جدير أن أغضب مني جميع الناس إذا لم تسعفيني بمعونتك وإرشاداتك. ويخيل إلي أنه من المتعذر أن يجد الإنسان في باريس كلها امرأة شابة جميلة ثرية أنيقة غير مشغولة بغرام يستغرقها، وأنا كما ترين في حاجة إلى امرأة هذه صفاتها أتعلم على يديها ما تسمونه علم الحياة. فإني أجد أينما ذهبت شخصاً من طراز مكسيم دي تراي. ولهذا لجأت إليك لأسألك حل لغز أعياني ولأعرف منك كنه الخطأ الذي ارتكبته. فقد تكلمت هناك عن رجل يدعى الأب..

وفي هذه اللحظة قطع جاك الوصيف عبارة الفتى معلنا:

– الدوقة دي لانجيه!

فقامت الفيكونتس لترحب بالدوقة وكانت مصافحتهما دليلاً على أخوة لا يمكن أن يكون هناك ما هو أغلى منها أو أخلص، فقال الفتى في نفسه:

– يا لهما من صديقتين! وأحسب هذه الصداقة متيحة لي مرشدتين لا واحدة، فلهما ولا شك ذوق واحد وعواطف واحدة بحيث يكفي اهتمام أحدهما بي كي تهتم بي الأخرى أيضًا

وقالت الكونتس لزائرتها في لهجة معسولة:

– أي غاية ميمونة مباركة أتاحت لي أن أسعد برؤياك الآن يا عزيزتي

أنطوانيت؟

– لقد رأيت المركيز داجودا بنتو داخلاً عند المسيو دي روشفيد فسبق إلى ظني أنني سأجدك وحدك!

ولم تضطرب الكونتس ولم تهتز فيها شعرة ولم يحمر وجهها، بل أن جبينها بدا كما لو كان قد ازداد إشراقا على إشراق، واستطردت الدوقة وهي تنظر إلى إيجين:

– ولو كنت أعلم أنني سأجدك مشغولة..

فقالت الفيكونتس:

– هذا المسيو إيجين دي راستنياك، من أبناء عمومتي، وهل لديك يا عزيزتي أنباء عن الجنرال مونتريفو؟ لقد قيل لي أمس إنه قد انقطعت أخباره عن المجتمعات، فهل هو كان لديك اليوم أيضًا.

فشعرت الدوقة بالطعنة، لأنها عاشقة مدلهة بالجنرال الذي شاع هجره لها في المدة الأخيرة. وتضرج وجهها وهي تجيب:

– لا أظنك يا كلارا تجهلين أن عقد خطبة المركيز على الآنسة دي روشفيد سيعلن غداً رسميا.

فكانت الضربة هذه المرة من الشدة بحيث ترنحت تحتها الفيكونتس

– هذه أراجيف يتشدق بها البلهاء! فلماذا يهدي الماركيز إلى قوم

مثل آل روشفيد اسماً من أبهى الأسماء وأعرقها في بلاد البرتغال، وآل روشفيد لا ترجع نبالتهم إلا إلى أمس القريب؟

– ولكن برت دي روشفيد سيكون لها دخل يبلغ مائتي ألف فرنك سنوياً.

– الماركيز أضخم ثراء من أن يقيم وزناً لهذه الحسبة.

– ولكن لا تنسي يا عزيزتي أن الآنسة دي روشفيد ساحرة باهرة الجمال

– آه!

– وهو الليلة سيتعشى على مائدتهم بعد أن تم الاتفاق على جميع الشروط، وإنه ليدهشني ألا يكون لديك علم بالأمر.

فالتفتت الفيكونتس إلى إيجين لتغير مجرى الحديث وقالت:

– هذا الفتى حديث عهد بالمجتمع يا عزيزتي أنطوانيت، فلنرجئ هذا الحديث إلى الغد رفقا به لأنه لا يفقه فيه شيئاً. فإذا كان الغد فإن الخافي من الأمر سيعلن ولا يحتاج إلى كلام والآن خبرني يا ابن العم أي خطأ تورطت فيه عند مدام دي ريستو؟

– إنني يا سيدتي بعد أن نجحت في كسب مودة الكونت دي ريستو، خطر لي أن أذكر له وللكونتس أنني أعرف شخصاً كنت رأيته خارجاً من

السلم الصغير لقصرهم بعد أن لمحته يقبل الكونتس في دهليز معتم.

فصاحت السيدتان في نفس واحد:

– ومن هو؟

– رجل شيخ يعيش في خان متواضع أنزل فيه أنا، وهو تمثال للبؤس والهزء، ويدعوه عارفوه على سبيل الزراية «الأب جوريو»...

فصاحت به الفيكونتس:

– أيها الطفل الغرير. إن مدام دي ريستو كانت تدعى الآنسة جوريو...

وقالت الدوقة:

– فهي ابنة صانع إطرية (شعيرية) جمع ثروة في غفلة من الزمان..

وهتف الشاب وقد بدت عليه الدهشة الهائلة:

– أهو أبوها؟

– نعم. فقد كانت له فتاتان، هو بهما مفتون مجنون، مع أنهما أنكرتاه وتنكرتا له ...

وقالت الفيكونتس للدوقة:

– أليست الأخرى متزوجة من صاحب مصرف له اسم ألماني، أظنه البارون دي نوسينجن؟ وأليس اسمها دلفين، وهي شقراء لها مقصورة في الأوبرا وفي الأوبرا الإيطالية، وتضحك بصوت مرتفع جداً لتلفت إليها الأنظار؟

– يا لذاكرتك المدهشة! وكيف بالله تشغلين رأسك بهؤلاء القوم؟

أما الفتى فجعل يردد كالمخاطب نفسه:

– أنكرتا أباهما وتنكرتا له...

فقالت الفيكونتس:

– أجل.. تنكرتا لهذا الأب الطيب الذي منح كلا منهما أكثر من نصف مليون بائنة، غير مبق لنفسه سوى عشرة آلاف فرانك إيراداً سنوياً، ظنا منه أن بنتيه ستكفيانه ذل الحاجة، وأن له في بيتهما بيتين لا واحداً.. ولكن ما انقضى العامان حتى أوصد دونه البابان!

فترقرق الدمع في عيني الشاب، وأنشأت الدوقة تقول:

– هذا محزن حقاً، وإن كان يتكرر كل يوم.. وإني أذكر قصة هذا الرجل فقد كان رئيس حرفته أيام الثورة الكبرى، فاتصل بالساسة وذوي النفوذ، وتاجر في السوق السوداء وجعل يبيع الدقيق بعشرة أضعاف ثمنه.. ولكن هذا الرجل الذي قسا قلبه حتى باع القوت للشعب الجائع بثمن اعتصره من دمائهم، كانت له في الحياة غاية واحدة، هي رفع بنتيه إلى

أعلى الدرجات، وتوفير أسباب المتعة لهما بأي ثمن.. ولكن ما إن تم الزواج حتى ضاق زوجاهما بهذا الشيخ السوقي، وأذعنت البنتان فأشارتا إليه ألا يحضر إلا في الأوقات التي لا يزورهما فيهما أحد بحجة التمتع بمجالسته على انفراد فلا يفسد الناس عليهما هذا المتاع.. وفهم الرجل فيما أعتقد ولكنه طوى جنبيه على قلبه الدامي وسكت إيثاراً منه لتوفير السعادة العائلية لبنتيه، فأصبح لا يزورهما إلا متخفيا متوازيا بالجدران وصاعدا من سلم الخدم.. فلما رأى بنتيه قد سكتتا عن هذا قرت عينه لأنه أدرك أنه خيراً فعل، وهكذا بذل هذا الولد كل شيء لبنتيه، بذل لهما أحشاءه طعاماً عن طيب خاطر، ونزل لهما عن كل ثروته بين يوم وليلة، ثم نزل أخيراً عن مجرد الزهو بهما، وهو يوشك أن ينزل حتى عن رؤيتهما!

فقالت الفيكونتس:

– ألا ما أخس الدنيا!

فأجابتها الدوقة وهي تتناول يدها هامة بالانصراف:

– كلا! إن الدنيا هكذا، فعلى من يطلبها أن يقبلها على علاتها!

فلما خرجت الدوقة التفت الفيكونتس إلى الشاب وقالت:

– اسمع يا عزيزي: خذ الدنيا بما هي.. فإذا كنت ترمي إلى الغنم والنجاح فإني معينتك عن طيب خاطر.. وسترى حين ينجاب القناع مبلغ الفساد، فساد النساء وفساد الرجال على السواء.. وكنت على كثرة ما

قرأت في كتاب الحياة جاهلة ببعض صفحاته، ولكنني الليلة عرفت ما لم أكن قد عرفت! فالنجاح في الدنيا يكون على قدر التجرد من مزايا الرحمة والنجدة وعرفان الجميل. كن قاسيا وغداً مجرداً من الإخلاص تقفز إلى أهدافك قفزا، فإذا اختلج قلبك بشعور صادق فحذار ثم حذار أن تطلع على حقيقته مخلوقا، لأنه سيكون نقطة الضعف التي تؤتى منها.. فهل جال بذهنك أن التنكر للوالد هو جريمة الفتاتين الكبرى؟ إنك إذن على خطأ كبير فإنه لشر من تنكرهما لأبيهما تلك المنافسة الحامية الوطيس الناشبة بينهما إلى غاية من التباغض والشحناء.. فالكونت دي ريستو عريق في النبالة، وزوجته قدمت رسميا للملك فحصلت بذلك على اعتراف بها صريح.. أما أختها الثرية الحسناء دلفين دي نوسينجين فهي امرأة رجل من رجال المال، ولكن حزنها لا يعدله حزن، والغيرة تأكل حشاشتها أكلا، لأنها من الوجهة الاجتماعية دون أختها بفراسخ.. فليس زوجها نبيلا معرقا، وهي لم تدع إلى البلاد ولم تقدم إلى الملك، ولا تفتح لها لهذا السبب أبواب الأوساط العليا، فالأختان لهذا متنابذتان، تتنكر الواحدة منهن للأخرى تنكرهما لأبيهما.. وإن دلفن لعلى استعداد أن تلعق كل الوحل المنتشر على الطريق بين بيتها في شارع سان لازار وبيتي هذا في شارع دي جرينل، في سبيل أن تحظى بالدخول إلى صالوني.. وقد ظننت أن صاحبها دي مارساي سيصل بها إلى ما تتمنى ولكن دي مارساي يلهو بها ويتمتع بمحاسنها ولكنه لا يأبه لها في الحقيقة.. وهذا ما جعلها تلاحقه حتى أملته، فإذا أنت قدمتها إلي وأدخلتها بيتي صارت أمة لك، وإني مستعدة من أجل خاطرك أن أستقبلها في حفلاتي العامة مرة أو مرتين وأن اقرأها السلام،

فأنت قد أوصدت في وجهك باب شقيقتها الكونتس دي ريسو بيدك، وثق أنك لن تجدها في بيتها في أي وقت ذهبت.. فاجعل الأب جوريو يعرفك بابنته الحسناء مدام دلفين، ومتى حصلت على قلبها بتقديمها إلي، تهافتت منافساتها على انتزاعك منها، وستلاحظ أن أشد هؤلاء المنافسات حماسة هي أشدهن ارتباطا بها بأواصر الصداقة.. فالنجاح عند واحدة هو مفتاح النجاح الدائم، فالباريسيات لا يفتن إلا ما في حوزة الأخريات، أما الرجل الذي لا تريده امرأة فلن يجد امرأة تريده.. فعليك بالبارونة دلفين، فإنك بهذا تفتح لنفسك أبواب مخادع أجمل الباريسيات، وتنتقم في نفس الوقت من أختها أوجع انتقام، لأنه ليس أشد إغاظة لها من دخول شقيقتها في الأوساط التي تحسب أنها انفردت بها دونها.. والآن اذهب يا عزيزي استعد لهذه الموقعة الأولى في سبيل الظفر بمناعم باريس..!

مفترق طرق

خرج إيجين غاضبا من بيت الفيكونتس ، بينما ترن في أذنه كلمتها:

– لقد أوصدت يدك باب الكونتس دي ريستو في وجهك ، من الآن وإلى الأبد.

وكان يردد لنفسه:

– سأذهب إلى دارها، وإذا اتضح لي أن الفيكونتس دي بوسيان على حق، فأقسم لأنتقمن من الكونتس دي ريستو أيما انتقام. ستجدني في كل صالون تدخل إليه، وسأتقن الرماية حتى أقتل لها مكسيمها هذا الذي تتدله فيه

ولكن صوتاً من أعماق سريرته هتف به:

– والمال يا صاح؟ من أين لك به؟

ولمعت أمام مخيلته تلك الفخامة والأبهة اللتين تعيش فيهما الكونتس دي ريستو، فقال لنفسه بمرارة:

– فوتران على حق، فالثراء هو الفضيلة الوحيدة في باريس!

وما أن بلغت به العربة النزل، حتى صعد إلى حجرته مسرعاً ليحضر

لسائق العربة عشرة فرنكات، ثم دخل إلى قاعدة المائدة ليجد فيها النزلاء مجتمعين، وبادره فوتران بلهجة ساخرة:

– أراك مكتئبا يا سيدي المركيز..

– لست في حالة تسمح لي بتحمل دعابات من يروق لهم أن يدعوني «سيدي المركيز». فكي يكون المرء مركيزا، لابد له من مائة ألف فرنكا دخلا سنويا..

– ألعلك ثائر الأعصاب لأنك لم توفق لدى الكونت دي ريستو؟..

– لقد أوصدت في وجهي بابها لأني قلت لها أن أباها يأكل على مائدتنا..

فتبادل الطاعمون جميعاً النظرات. وأغضى الأب جوريو قليلاً ثم مسح عينه وقال لجاره على المائدة:

– لقد ألقيت طباق تدخينك في عيني.

فصاح إيجين:

– كل من تعرض للأب جوريو بسوء سيتعرض لغضبي، فالرجل خير منا جميعاً.

فاعترضه فوتران بقوله:

– ينبغي لك كي تستطيع حماية الأب جوريو أن تحسن استخدام السيف وإصابة الهدف بالمسدس.

– وهذا ما سأفعله فعلاً

– يبدو أنك قد أعلنت اليوم الحرب على الكافة

– ربما. ولكن لست مسئولا عن تقديم حساب لأي أحد

فبدا الجو مكهربا، ولاذ الجميع بالصمت، ثم همست مدام فوكير للطالب الشاب في دهشة:

– هو إذن والد كونتس فعلاً؟

– وبارونة أيضًا

فعلق طالب الطب بيان شوبه على ذلك بقوله:

– لست أستغرب هذا، فقد فحصت رأسه ولم أجد فيها إلا وظيفة واحدة هي وظيفة الأبوة، فهو «الأب الأبدي»

ولكن إيجين لم يطرب للنكتة لأنه كان مشغولا بمراجعة إرشادات الفيكونتس دي بوسيان وبالتساؤل عن الطريق الذي يحصل منه على المال

وبدأ الطاعمون ينصرفون حتى بقي وحده مع الأب جوريو، الذي سأله فجأة بصوت مختلج:

– لقد رأيت ابنتي إذن؟

فأفاق الشاب من شروده وتناول يد الشيخ فتأمله بحنان وأجابه:

– أنت رجل شهم كريم النفس. وسنتكلم عن بنتيك فيما بعد

ثم نهض فتوجه إلى حجرته حيث كتب إلى والدته خطاباً يتوسل إليها أن تتدبر بأية وسيلة إرسال ألف ومائتي فرنكا دون علم والده لكي ينقذ بها نفسه وشرف اسمه من ورطة وقع فيها، ولم ينس أن يلوح لها بالانتحار في حالة تأخر ورود المبلغ. ثم كتب لكل من أختيه يطلب إليها أن تسعفه بمدخراتها الشخصية الضئيلة بعد أن ضرب لهما على نغمة الشرف الرفيع الذي ينبغي أن يسلم من الأذى.

فلما فرغ من الكتابة شعر بالخجل والندم. فهو يعلم أن حالة الأسرة المالية في غاية من السوء. ويعلم كذلك أن والدته ستحزن حزناً مميتا إذا أعجزها أن تدبر هذا المبلغ كله، ثم إذا هي وفقت بعد لأي، فما الهدف الذي من أجله تستغل عاطفتها النبيلة وتضحياتها الهائلة؟ في سبيل الوصول إلى غانية تافهة من غانيات باريس اسمها دلفين دي نوسينجن.

وترقرقت في عينيه قطرات قليلة من الدمع، هي حبات البخور الأخيرة التي أحرقها هذا الفتى على مذبح الأسرة المقدس. وكان باب غرفته مفتوحا فرآه الأب جوريو على هذه الحالة فدخل عليه وقال له:

– ماذا بك يا سيدي؟

– آه يا جاري العزيز! إنني ابن وأخ كما أنك أب. وأنا أدرك شعورك بالقلق على ابنتك الكونتس أنستازي، فهي ألعوبة بين يدي مخلوق يدعى مكسيم دي تراي، سيودي بسعادتها.

فانسحب الأب جوريو وهو يتمتم ألفاظاً لم يستطع إيجين أن يتبين كنهها.

وفي اليوم التالي ذهب راستيناك فأودع الخطابات صندوق البريد، وننصفه فنقول أنه تردد أمام الصندوق لحظة قبل أن يلقي فيه بالخطابات وهو يقول لنفسه:

– سأصل! سأنجح..

وهي كلمة المقامر، وكلمة القائد، وكلمة كل مقدم على مغامرة، وكم أضاعت من رجال يزيدون كثيرًا على من وصلت بهم إلى شاطئ الأمان..

ووالد وما ولد

توجه إيجين بعد بضعة أيام إلى دار مدام دي ريستو، ولكنه لم يظفر بما تمنى، فقد قيل له منذ أول وهلة أن الكونت والكونتس ليسا في البيت. وأعاد الكرة بعد ذلك ثلاث مرات ليحصل في كل مرة على نفس النتيجة مع أن حرص على التوجه للزيارة في الساعة التي لا يكون فيها مكسيم عند الكونتس.

إذن فالفيكونتس دي بوسيان كانت على حق، وقد أزعجه هذا كثيرًا وعكر صفوه فلم يعد هذا الطالب يطلب من العلم شيئاً: فهو يذهب إلى المحاضرات ليثبت وجوده عند مناداة اسمه ثم ينطلق لتوه ممنيا نفسه بأن في الوقت متسعا للاستذكار قبيل موعد الامتحان.

وفي هذا الأسبوع زار الفيكونتس دي بوسيان مرتين، ولكنه كان حريصا على ألا يذهب إليها إلا بعد أن يرى عربة الماركيز داجودا خارجة به من بوابة القصر؛ فقد استطاعت هذه السيدة أن تطيل حلم غرامها أياماً أخرى إذ نجحت في إيقاف زواج الماركيز من الآنسة دي روشفيد. ولكن الواقع أن الماركيز وأنسباءه الجدد أملوا أن يجدي صلحه مع الفيكونتس في تعويدها فكرة الزواج فتنتهي بالتسليم بالأمر الواقع.

واستطاع إيجين أن يظهر نفسه لديها شديد العطف والإخلاص وهي في حالة تعد أحرج الحالات في حياة المرأة، ولكنه اجتهدا في هذه الفترة

أيضًا أن يدرس ميدان معركته القادمة دراسة دقيقة فاتصل برجل يدعى «موريه» هو الذي اشترى من جوريو تجارته وعرف منه جميع المعلومات المتعلقة بحياة جوريو!

فعرف أن جوريو كان قبل الثورة الفرنسية عاملاً أجيرا في صناعة الأطرية. وكان رجلاً ماهرا مقتصدا حصيفاً دءوبا فاستطاع أن يشتري من مخدومه مصنعه الصغير واستقر بقرب سوق الغلال، ثم سعى إلى تزعم اتحاد حرفته. وبهذه الصفة استطاع الوصول إلى أصحاب النفوذ في هذه الفترة المتقلبة الخطرة، فكانت هذه الخطوة هي السبب الرئيسي لإثرائه السريع؛ ففي الوقت الذي كان الناس فيه يقتتلون على أبواب الخبازين كان جوريو يحصل على قمح يبيعه بأسعار خيالية. حتى إذا كون رأس مال ضخما خرج من السر إلى العلن وقام بعملياته على نطاق واسع وبالجرأة التي تتيحها لأصحابها رؤوس الأموال الضخمة. ومن حسن حظه أن ثراءه الفاحش لم يعرف أمهر إلا بعد أن مرت «الفترة الحرجة» ولم تعد الأموال الطائلة تجر الوبال على أصحابها.

ويبدو أن تجارة الغلال قد استولت على كل ملكات الرجل فهو خبير بأنواعها وطرق حفظها من التلف ومصادر استيرادها بل وكانت له القدرة على التنبؤ بما ستكون عليه المحاصيل من وفرة أو قلة؛ فهو في هذه الفنون كلها بحر زاخر لا أول له ولا آخر يكاد من يراه يدير دفة أعماله أو يناقش فيها يحسبه أهلاً للتربع في دست الوزارة. ولكنه متى خرج من هذه الدائرة وغادر عتبة دكانه التي كان يقضي عليها معظم أوقاته متكئا بكتفه

إلى عارضة بابها، انقلب سوقيا جلفا جاهلاً لا قدرة لديه على متابعة استدلال، ولا حس لديه للذات الفكر والروح، فهو إذا ذهب إلى المسرح غط في النوم.

أما امرأته، وهي الابنة الوحيدة لمزارع غني فكانت لها لديه مكانة تكاد تكون فيها قديسة من قديسات الكنيسة، فهو يحبها حبا لا حد له لأنه تعشق فيها الرقة والقوة والحساسية والجمال، وهي صفات هو في أشد الحاجة إليها. ولكن زواجهما لم يدم سبع سنين ترمل بعدها جوريو فحزن عليها حزناً شديداً وبدأت عواطفه الزوجية تخلي السبيل لعواطف الأبوة نحو بنتيه.

وتقدم إليه كثير من التجار ليصهروا إليه طامعين في تزويجه إحدى بناتهم ولكن الرجل آثر الترمل برا ببنتيه واكتفاء بهما، وقيل لهذه المناسبة أن الرجل كان قد أقسم لزوجته على الوفاء وأنه حرص على البر بقسمه حتى وهي تحت التراب.

وبطبيعة الحال كانت تربية البنتين شيئاً لا منطق فيه ولا ذوق؛ فهو غني جداً ولا هم له في الحياة إلا تدليل البنتين والاستجابة لأي رغبة تخطر لإحداهما بغير تردد أو مناقشة. ولكنه جلب لهما خير الأساتذة واستخدم لهم مرافقة ممتازة علمتهما آداب المجتمع على أحسن وجه. وفيما عدا هذا كانتا تقضيان الوقت في امتطاء الجياد والتنزه في العربة الفاخرة التي اشتراها لهما جوريو، فكأنهما في الواقع عشيقتا نبيل طاعن في السن. فيكفي أن تطلب الواحدة منهما أي شيء لتناله في التو نظير قبلة أو ملاطفة بسيطة.

فالرجل كان يحبهما إلى درجة التلذذ بالآلام التي كانتا تسببانها له.

فلا غرو إذن وقد بلغتا سن الزواج أن يكون لهما الرأي الأول والأخير في اختيار زوجيهما، مع التصريح بأن كل واحدة منهما ستنال نصف ثورة أبيها بائنة لها يوم زواجها. فلما أغرم الكونت دي ريستو بجمال أنستازي، وكانت الفتاة مغرمة بالأبهة والارستقراطية، لهذا لم تتردد في قبوله والانتقال إلى محيط الطبقة الراقية. أما دلفين فكانت تحب المال؛ لهذا تزوجت من نوسينجن المصرفي الألماني الأصل. وأما جوريو فبقي صانع إطرية، ولكن زوجي بنتيه استنكفا من هذا فألحا عليه باعتزال المهنة التي كانت حياته كلها. فأذعن الرجل بعد خمس سنين جمع فيها ثورة تكفل له دخلا سنوياً يصل إلى عشرة آلاف فرنك، ثم أقام في خان فوكير بعد أن وجد بنتيه تضيقان به، بل تضيقان بزيارته لهما في أوقات الاستقبال.

وصول المدد

قبيل نهاية الأسبوع الأول من شهر ديسمبر تلقى راستينياك خطابين أحدهما من والدته والآخر من شقيقته الكبرى، وقد أخبرته أمه أنها تمكنت من تدبير المبلغ بمعونة شقيقتها، فباعت الذي كان البقية الباقية من يسرة الماضي لكي توفر له المبلغ المطلوب. ثم أخذت تنصحه وتوصيه بالجد والاجتهاد لأن أمل الأسرة كلها معقود عليه. فلما تلا الفتى الخطاب خنقته العبرات وتذكر منظر الأب جوريو وهو يصهر أدواته الفضية ويبيعها ليسدد ديون ابنته، وقال لنفسه:

– ها هي والدتك تفعل ما فعله بحليها. ولا ريب أن خالتك قد ذرفت دمعا سخينا وهي تبيع شيئاً من أيقوناتها الذهبية. فأي حق لك أيها الفتى النزق في أن تدين أنستازي دي ريستو لأنها تعتصر دم أبيها في سبيل الأبهة أو لتشتري رضى عشيقها؟

وأحس الفتى أن ناراً محرقة تستعر في أحشائه ثم فتح الخطاب الآخر فوجد شقيقته تخبره أنها جمعت مدخرها ومدخر أختها ومجموعهما ثلاثمائة وخمسون فرنكا مضحيتين بما تعودتا أن تغزلاه لنفسيهما من ملابس.

فأحس إيجين أن كنوز الأرض جميعاً لا يمكن أن تساوي هذا الإخلاص البريء. ولكن فكرة تجميع ألف وخمسمائة فرنكا في يده سكنت الآلام التي كان يسببها له ضميره. وبدأ يفكر في الخياط الذي سيجعله

ينافس مكسيم في الرشاقة والأناقة.

وفي هذه اللحظة دخل رسول البريد إلى قاعة المائدة وسأل عن إيجين دي راستنياك ثم قدم إليه كيسين ثقيلين وكراسة ليوقع عليها بالاستلام. فرشقه فوتران بنظرة نفاذة وقال:

– ها قد صار لديك ما تأخذ به دروسا خصوصية في السلاح

وهمَّ الجالسون بالانصراف بعد انتهاء هذا المشهد، بيد أن إيجين صاح بفوتران:

– أرجو منك الانتظار

– ولماذا؟

– أريد أن أرد إليك قرضك الصغير

ثم قدم إليه عشرين سنتيما بعد أن أعطى مدام فوكير كراء الخان بضعة أشهر مقدماً. فقال له فوتران:

– كأني بك لا تريد أن تكون مدينا لي بشيء ولو كان تافها

– أجل لا أريد..

ونهض الفتى حاملا كيسيه ليصعد بهما إلى غرفته، ولكن فوتران قال له وهو يتجه نحوه بتحد:

– أتعلم يا سيدي الماركيز المبجل أن ما قلته لي الآن ليس كلاماً في غاية الأدب..

فأقفل راستيناك الباب وراءه بعد أن خرج متأبطا فوتران إلى المربع الذي يفصل قاعة المائدة عن المطبخ والذي باب يفضي إلى الحديثة، وهناك قال الطالب على مسمع من «سيلفي» الطباخة:

– يا سيد فوتران، لست مركيزا ولا أحب أن تدعوني بالماركيز.

وقالت الآنسة ميشونو معلقة:

– إنهما سيتقاتلان

وصاحت فيكتورين وهي تنهض لتطل على الحديقة:

– ها هما تحت الزيزفون، ولكن الشاب المسكين على حق.!

فقالت لها مدام كوتير:

– هيا بنا نصعد إلى حجرتنا يا ابنتي فهذه الأمور لا تعنينا في شيء.

فلما أخذتا في الصعود لقيتهما الطباخة وقالت لهما إن الرجلين يتحدثان تحت الزيزفون. وفي هذه اللحظة ظهر فوتران وقال لصاحبة الخان:

– لا تفزعي يا ماما فوكير، فإني سأجرب مسدسي تحت الزيزفون.

فضمت فيكتورين يديها وتوسلت إليه قائلة:

– لماذا تريد يا سيدي أن تقتل المسيو إيجين؟

فتراجع فوتران إلى الوراء خطوتين وحملق في الفتاة وصاح:

– ما شاء الله! وهذه حكاية أخرى، إنه لطيف هذا الشاب الجميل، أليس كذلك؟ لعمري لقد حُببت إلى أن أسعى في إسعادكما يا طفلتي الجميلة!

وكانت مدام فيكتورين قد قبضت على ذرع ربيبتها وجرتها إلى السلم وهي تهمس في أذنها:

– لله ما أعجب أطوارك اليوم!

وصاحت مدام فوكير:

– لا أريد أن يطلق في بيتي رصاص. أم تراك تريد إزعاج الجيران واستدعاء البوليس في هذه الساعة؟

– على رسلك يا أماه!

ثم لحق براستنياك وتأبط ذراعه بغير تكليف وقال له:

– هل أنت متأكد أنني إذا أثبت لك قدرتي على إصابة نقطة واحدة خمس مرات متوالية على بعد خمس وثلاثين خطوة، سوف لا تخونك

شجاعتك؟ إنك عصبي ويخيل إلي أنك ستقتل في أول جوله بكل حماقة

- أنت تتراجع إذن؟

- لا تمتحن صبري. هيا اجلس على هذا المقعد وأعرني سمعك فلدي ما أقوله لك، فأنت فتى لا أدري لماذا أحبك. بل لعلني أدري، وإني مخبرك بغايتي، فضع نقودك على هذه المائدة وهدئ روعك حتى تحسن وزن ما أقوله لك..

وفعل إيجين كما أشار عليه فوتران، وجلس مصغيا إليه بجميع حواسه.

الدرس الثاني

قال فوتران:

– لعلك تريد أن تعرف من أنا وماذا كنت أصنع أو ماذا أصنع الآن؟.. ولكن لا شأن لك بهذا، فقد مارست الأيام وأمتحنتني الأحداث بخطوب جسام.. حتى لم يعد تاريخي سوى ثلاث كلمات: من أنا؟ فوتران! وماذا أصنع؟ ما يروقني! وما خليقتي؟ طيبة القلب مع الطيبين ومع من يميل إليهم قلبي! حل لهؤلاء كل شيء، يصفعونني أو يركلونني في عظم ساقي ولا أنهاهم.. ولكن إذا توسمت الشر في إنسان فلن ينقذه من يدي أحد.. وليس قتل إنسان عسيرا علي، بل هو أهون من قلامة ظفر، بيد أنني أحب إذا قتلت إنسان أن أقتله كلما ينبغي وبحسب أصول المهنة، فأنا فنان في هذا الموضوع بل أنا أحب الجمال وأنشده في كل شيء والحياة والموت بعد حظوظ واتفاق. وليست المبارزة إلا لعبة من ألعاب الحظ والمصادفة، ثم هب أنك قتلتني، وهو على تعذره ليس مستحيلا، فماذا تراك ستجني؟ إنك ستضطر إلى مغادرة البلاد والحياة في المنفى ويبدأ عذاب «بابا وماما» لتدبير النفقات الباهظة في بلاد الغربة، و«بابا وماما» ليست حالتهما من اليسر والرخاء بمكان، فدعني يا صديقي الصغير أبين لك موقفك الراهن على حقيقته: لا بد لك من إحدى خطتين لا ثالث لهما: إما الاستسلام لظروفك القاسية، وإما التمرد ومحاولة الوصول إلى شيء ذي خطر في هذه الحياة الدنيا. فهل تعلم كم يلزمك لكي تعيش العيشة التي تطمح إليها؟

مليون فرنك دفعة واحدة، وهذا المليون سأتكفل أنا بتقديمه إليك! أجل لا بد لك من هذا المليون حاضراً.. فلو ذهبت تحصله بالشرف والأمانة وممارسة القانون لما حصلت عليه أبداً، فلا سبيل إذن أمامك إلا التمرد والاجتراء على القيم والأوضاع منذ الآن.. فأنت الآن في مفترق الطرق: إما الوصول والتمتع والرفاهية، وإما البقاء في الدرك الأسفل من المجتمع خاما محروما. فماذا تزمع أن تصنع إذا فرغت هذه الألف وخمسمائة فرنك؟ هل تعرف الطريق للحصول على المال في هذا البلد؟ لا طريق سوى العبقرية أو اللصوصية. أما الشرف فلا طائل تحته لرجل عادي. وإذا أردت نصيحتي، فخير لك أن تكون لصا من أن تكون عبقريا! فالعبقري مكروه، محسود، محقود عليه، لأنه معدن غريب، ولأنه لا يشارك الناس ولا يشاركونه! أما اللصوصية فليست معدنا غريباً، ولا تثير حقداً ولا كراهية! إنها السلاح الذي لا يخيب، فعليك به، لأنك إذا لم تستخدمه، فلن تخطئ أن تحس بذؤابته فوق رقبتك..! سترى كيف تنفق زوجة الموظف الذي مرتبه ستة آلاف عشرة آلاف على زينتها وثيابها وحدها! سترى موظفين يتقاضى الواحد منهم ألفاً ومائتي فرنكا في السنة ويشتري الضياع والمتاع! وسترى نساء يهدرهن عفافهن في سبيل الركوب في عربة «ابن ذوات»! فإذا كنت تريد الإثراء فلا تقنع بالضربات الصغيرة، بل عليك بالضربات الكبيرة.. واعلم أن قانون الأخلاق في هذا العصر هو الوصولية! فالوصول هو الفضيلة يا صاحبي، والفشل هو الرذيلة والرجس الأكبر!

– ماذا ترى لي إذن؟

– أرى لك أن تعمل بالاقتراح الذي سأعرضه عليك الآن..

– وما هو؟

لدي فكرة متسطلة على دماغي، وهي الحياة في ضيعة واسعة يعمل فيها مئات العبيد في الدنيا الجديدة.. فاجمع بضعة ملايين من بيع الثيران والطباق والأخشاب، وأنا أعيش عيشة السلاطين، أمري نافذ وإرادتي مطلقة.. وأنا يا صاحبي شاعر كبير ولكن قصائدي ليست كلمات منظومة وإنما هي عواطف وانفعالات وأعمال، ولست في حاجة إلا إلى مائتي ألف فرنك لأنني أريد أن أبدأ بمائتي عبد من الزنوج حتى أوفر لنفسي تلك الحياة القبلية التي أحلم بها فالعبيد يا عزيزي محصول بشري يأتيني كل عام من ذراريهم أفعل به ما أشاء دون أن يكون لأي وكيل نيابة أن يستأديني عنهم حسابا! وبرأس مالي هذا من الزنج يتسير لي في الشر سنين الأولى أن أجني ثلاثة ملايين أو أربعة.. حتى إذا نجحت في تحقيق ذلك لم يسأل إنسان من أنا؟ فإنني سأكون حضرة السيد المحترم «أربعة ملايين» من مواطني الولايات المتحدة! وسيكون لي من العمر خمسون سنة. وهو عمر ليس منتهي الشيخوخة، ففي مقدوري أن أتمتع بالحياة!

– ولكن أنا، ما علاقتي بهذا المشروع؟

– وصلنا! إذا أنا يسرت لك بائنة عروس قيمتها مليون من الفرنكات، فهل ترضى أن تعطيني منه مائتي ألف فرنكا؟ عمولة عشرون في المائة، فهل هذا كثير؟ لن يكلفك الأمر بعد أن تكسب بلطفك وشبابك

قلب عروسك سوى إظهار القلق وشرود الذهن وانشغال البال خمسة عشرة يوماً، وذات ليلة، بعد القيام ببعض الحركات المسرحية تفضي إليها – فيما بين قبلتين – بأنك مدين بمائتي ألف فرنك «يا حبوبتي»! وثق أن هذه المهزلة تتكرر كل يوم في أرقى الأوساط، وما من امرأة تقدر على منع كيس نقودها عن الرجل الذي استحوذ على قلبها.. وهكذا تكون قد بنيت في ستة أشهر من الزمان صرح سعادتك وسعادة زوجتك الشابة الرقيقة وسعادة بابا فوتران، فضلاً عن سعادة الأسرة التي تتبلغ بالعيش الجاف في ركن من أركان الريف! فلا تعجب مما أعرضه عليك ولا مما أطلبه منك، فبين ستين زواجا موفقاً يعقد في باريس سبعة وأربعون أساسها هذه المساومات.

– ولكن ماذا علي أنا أن أصنع؟

– تقريباً لا شيء! أصغ إلي: إن قلب الفتاة الفقيرة الكسيرة الخاطر مثله كمثل القطعة من الإسفنج، فهو أشوق ما يكون إلى امتصاص الحب والامتلاء به أينما وجده حوله.. فما أيسر أن تطارح الهوى شابة مستوحشة يستولي عليها اليأس والفقر دون أن تدري أي ثروة يخبئها لها المستقبل.. حتى إذا هبطت الملايين على هذه الفتاة لم تتردد في طرحها تحت قدمي كأنها الأصداف التي لا قيمة لها وهي تقول: «خذها يا حبيبي فهي كلها لك!»

– ولكن أين أجد هذه الفتاة؟

– إنها بين يديك

– الآنسة فيكتورين؟

– بعينها

– وكيف؟

– إنها تحبك يا صاحبي منذ الآن

– ولكنها لا تملك دانقا ولا درهماً!

– ها قد بلغنا مربط الفرس، فأعرني سمعك يتضح لك كل شيء: إن الأب تايفير وغد عتيق، يقال إنه قتل بعض أصحابه أثناء الثورة، وهو رجل مستقل الرأي لا يقيم وزناً لقيم الأخلاق أمام رغباته الخاصة. وهو مصرفي واسع الثراء وله ابن وحيد يريد أن يورثه كل ثروته من دون فيكتورين. وهذا الغبن لا يروق لي شخصيا، فأنا مثل دونكيشوت أنتصر للضعيف من القوي. فإذا كانت إرادة الله العلي أن يسترد منه ولده هذا، فلن يجد تايفير مناصا من أخذ ابنته في أحضانه، لأنه لا بد له من وريث على كل حال. وفيكتورين حلوة رقيقة الجانب لن تخطئ أن تستولي على عقل أبيها وقلبه. وسيكون عطفك عليها وحبك لها أيام فقرها قد أثر في نفسها فتصر على الزواج منك. هذا دورك يا صاحبي وهو كما ترى سهل جميل. أما دوري أنا فأصعب، لأنني سأمثل العناية الصمدانية، وسأقوم بمهمة إقناع المولى العلي باسترداد ابن تايفير. فلي صديق من رجال الحرس موثوق به على استعداد

للإقدام على أي شيء ولو كان صلب المسيح إذا أنا أمرته. وسيتولى هذا الصديق إغراء الشاب تايفير بتحديه أو إهانته. ثم يحل الإشكال، وفي الظلام، دون أن يدري أحد كيف حل...

– يا للفظاعة! أتمزح يا مسيو فوتران؟

– رويدك! لا تصنع براءة الطفولة. وفكر في الأمر مليا؛ فهو ليس على الظاهر من بشاعته بأبشع كثيرًا من كبائر أخرى سوف تقدم عليها في مقبل حياتك خلي البال. وإلا فخبرني هل هذا شر من الاحتيال على غانية تبيعها ماء شبابك يوماً لتحصل منها على المال؟ ولا تحاول أن تنكر أنك فكرت في هذه الوسيلة وفي هذا العمل أن تنكر أنك فكرت في هذه الوسيلة وفي هذا العمل لأنه من أين لك أن تقدر النجاح في المجتمع والوصول إلى الجاه من دون التعويل على بيع هواك للنساء كما تبيع العاهرة هواها؟ والفضيلة يا صاحبي لا تتجزأ، فالذي يبيع جسده والذي يهدر الدم البريء سواء في بعدهما عن مآزر الفضيلة الناصعة البياض. فليس بين الذي أقترحه عليك وما ستقدم عليه بل تنوي الإقدام عليه كبير فرق. فأما أن تتمسك بمبدأ الشرف والاستقامة، فعليك إذن أن تلبث حيث أنت ولا تنظر إلى ما فوقك ولا تطمع في تغيير حالتك، وإما أن تطمع إلى التمتع بالدنيا، فخذها إذن كما هي وتوسل إليها بوسائلها، واعلم أنه ما من جاه طائل في هذا العالم إلا وفي أساس صرحه الشامخ جريمة مستورة نسي الناس وزرها ووضرها بالذي بهرهم من بذخ حاضرها وترفه.

– حسبك يا سيدي حسبك! لا أرب لي في سماع المزيد من إغوائك، فقد أوشكت أن تفتنني عن نفسي وتشككني في وجود العاطفة الإنسانية، وهي اليوم حلمي الوحيد وفني الفريد

– أنت وما تريد أيها الطفل الوسيم. لقد ظننتك أصلب عودا، ولكن لي كلمة أخيرة..

وثبت عينيه في الطالب الشاب ثم استطرد:

– لقد كشفت لك عن سري

– إن فتى لديه من الصراحة ما يكفي لرفض ما عرضت عليه قمين أن ينساه جملة وتفصيلا

– أحسنت يا فتى! ولو غيري لم أطمئن إلى لفظ معسول. ولكني أميل إليك، ولهذا لا زلت أضع الأمر بين يديك، وأمامك خمسة عشر يوماً تتدبر فيها فلعلك تثوب إلى الصواب..

واستدبره وانصرف

اكتمال الزينة

داوم الفتى النظر إلى الرجل الضخم وهو يبتعد عنه في هدوء وقد تأبط عصاه، ثم هز رأسه وقال لنفسه:

– يا له من رجل صعب المراس! إن ما قاله لي عن وسائل النجاح في الحياة لا يختلف في شيء عما قالته لي الفيكونتس دي بوسيان إلا في الأسلوب وظاهر العبارة، فهي امرأة متأنقة أما هو فيأبى أن يعرض الحقيقة إلا عارية مجردة. ويحه! لقد نبش قلبي بمخالب من فولاذ! ولماذا – ليت شعري – أريد أن أتعرف إلى البارونة دلفين دي نوسنجين؟ لقد حرك الرجل بواعثي ودوافعي، وعرفني من أمر الخير والشر ما لم تعرفني به الأسفار الضخام والأساتذة الأعلام.

ورمق كيسي النقود اللذين أمامه على النضد في الحديقة واستطرد:

– ... وكأني وقد سرقت أختي هذا المال لأصرفه في اللذات. فأنا إذن قد جانبت طريق الفضيلة وانتهى الأمر، وباعدت بيني وبين أهل الخير والبر. ولكن من ذا من الناس يستمسك بحبل الفضيلة، وإن كانوا جميعاً يتشدقون بها؟ ومن طلب الجليل من الأمر لم يأبه أن يخوض إليه الأوحال. ولكن لا! وألف لا! فما أجمل أن تتقدم بالمرء السن فيستعرض حياته أمه عينيه فإذا هي بيضاء من غير سوء، طاهرة كزنابق الحقل! سأسلك الطريق الشاق الطويل، طريق العمل الشريف، فأنا والحياة مثلنا كمثل خطيبين،

ينبغي أن يعتصما بالطهر ويتجنبا كل ما يشين، حتى تقوم الحياة بينهما على الاحترام المتبادل والصفاء الكامل. رباه! إن رأسي تدور، فما أدري أيان أسلك في شعاب هذه الحياة التي تبدو لي كالتيه..

وأخرجته الطباخة سيلفي من صمته، منبهة إياه إلى حضور الخياط الذي أوصاه أن يصنع له كسى لائقة على آخر غرار. فقام ليجربها، فلما لبس واحدة منها ونظر إلى نفسه في المرآة قال:

– لقد أصبحت لعمري لا أقل بهاء عن مكسيم دي تراي! فإني أبدو وجيها شريفاً في هذا الكساء!

ولم يلبث أن دخل عليه الأب جوريو حجرته وقال له:

– لقد سألتني يا سيدي عن البيوت التي تتردد عليه مدام دي نوسينجين.

– أجل...

– إنها ستذهب يوم الاثنين المقبل إلى الحفلة الراقصة التي يقيمها الماريشال كاريليانو. فإذا كنت ذاهبا إليها، فسيتسنى لك أن تخبرني كيف بدت بنتاي فيها...

– ولكن كيف عرفت هذا أيها الوالد العزيز؟

وأخذ بيد الشيخ فأجلسه قرب المدفأة، فأجابه في سرور ظاهر:

– أفضت إلي به وصيفتها، فأنا أعرف جميع أخبار بنتي من وصيفتيهما «تيريز» و«كونستانس»

فكأن الرجل الشيخ عاشق مدله لم ينل الحظوة، ولكنه يتعلق بأخبار الحبيبة ويتسقطها من أفواه الخدم! ثم استطرد الشيخ:

– إني أغبطك، فإنك أنت ستراهما.

– لا أدري.. سأذهب على كل حال إلى الفيكونتس وأرجوها في تقديمي إلى الماريشالة..

وشعر الشاب بالسرور بداخله لفكرة مثوله بين يدي الفيكونتس في زيه القشيب الأنيق، فأنساه هذا الزهو كل ما كان يجيش في حناياه من ندم وتأنيب ضمير، ونسي عواطفه الطاهرة التي كانت تتحمس للفضيلة العذراء! فما إن رأى نفسه أنيقا وجيها حتى هانت عليه كل هذه النظريات، ورأى متاع الحياة وغرورها كفؤا للخطيبة والرذيلة. ألا ما أضعف الإنسان!

وكان الجاران، الشاب إيجين والشيخ جوريو، قد تقاربا كثيرًا في الأيام القليلة الماضية، لأن الشيخ قد أدرك بحاسة مجهولة لديه كحاسة الكلب حين يعرف صديقه من عدوه بغير تفكير. ولكن هذا التقارب لم يصل بهما بعد إلى مرتبة التكاشف بالخفايا ومكنونات الطوايا. فلم يحدثه الشيخ عن بنتيه إلا فيما يتصل بما ورد على لسان الشاب على المائدة عقب عودته من زيارة الكونتس دي ريستو. فقد زار الشيخ الشاب في اليوم التالي وقال

له:

– من أين أتاك يا سيدي العزيز أن الكونتس دي ريستو أعرضت عنك أو غضبت عليك لأنك ذكرت أمامها اسمي؟ إن ابنتي تحباني كل الحب، وإني بأبوتهما جد سعيد. ولكن صهري هما اللذان أساءا معاملتي وأشاحا عني وصدا صدودا، فلم أشأ أن أعكر صفو حياة ابنتي، وفضلت التضحية من جانبي، ورضيت ألا أراهما إلا خلسة. وهذا الاختلاس للذة الحلال فيه من المتاع ما لا يخطر ببال الآباء الذين يرون بناتهم جهارا. أما أنا فليس لي إلى ذلك سبل. أتدري ماذا أصنع إذن؟ إذا كان الجو صحوا ذهبت إلى «الشانزيليزيه» – بعد أن أكون قد عرفت من وصيفتيهما أنهما ستذهبان إلى هناك – وأنتظر في الطريق لأراهما حين تمران في عربتيهما المطهمتين، وزينتهما الباهرة، وأسعد بابتسامة تلقيانها إلي، فتضيء كأن شعاعا من الشمس قد دخل إلى قلبي المظلم! ثم أنتظر مرورهما مرة أخرى في طريق العودة، لأسعد برؤيتهما مرة أخرى وقد تورد وجهاها وأجدت عليهما النزهة في الهواء الطلق. ويداخلني الزهو والاغتباط حين أسمع من حولي عبارات الإعجاب بهما وبجمالهما الفتان! فهما لحمي ودمي، ومن حبهما أحب الخيل التي تحملهما أو تقلهما، وأتمنى لو كنت الكلب الصغير الذي تحملانه فوق ركبتيهما فلم تعد لي حياة إلا بحياتهما، ولا متعة لي إلا أن أراهما تتمتعان؛ فكل امرئ له طريقته في الحب، وتلك طريقتي، ولا ضير منها على مخلوق، فلماذا لا يدعني الناس آمنا في سربي؟ فهل أفتأت على أحد بتسللي تحت جنح الليل كي أرى ابنتي في نجوة من الناس، وهما خارجتان لحضور حفلة راقصة أو للذهاب إلى الأوبرا؟ ويا لها من مصيبة

إذا وصلت متأخرا، وقيل لي «إن السيدة قد خرجت».. فقد ظللت مرة في الطريق إلى الثالثة صباحاً لكي أرى «نازي» حين تعود من السهرة، لأني لم أكن قد رأيتها منذ يومين!.. ولكن إياك أن تظن بهما الجحود، فهما تريدان إغراقي بالهدايا والألطاف، ولكنني أنا الذي أرفض، وأقول لهما: «وفرا نقودكما. فما بي حاجة إلى هذه الأشياء في هذه السن. لست بحاجة إلى شيء».. وهذا حق! فما أنا حتى يضيع المال في حوائجي؟ ما أنا إلا جيفة لا قيمة لها في ذاتها، لأن روحي موزعة على جسدي ابنتي هاتين!.. وأرجو إذا لقيت مدام دي نوسنجين أن تصارحني أي ابنتي أبهى جمالاً وأبدع حسناً».

وإذا رأى الشاب يتأهب للخروج في حدائق التويلري حتى حين موعد الفيوكونس دي بوسيان، استأذن في الانصراف وهو لا يزال يتمتم حديثاً غامضا عن بنتيه.

خرج الفتى إلى التويلري بقصد النزهة وقطع الوقت، فكانت هذه النزهة هي القاضية على البقية الباقية من صوت الضمير فقد خنقته خنقا، فمات دون أن تند عنه نأمة! ذلك أن نفرا من السيدات المتنزهات هناك التفتن إليه معجبات، لأنه كان غض الأهاب، أنيق الثياب.. فاستشعر من ذلك زهوا كاد يخرج به عن طوره، ولم يعد لشقيقته ذكر في ذهنه المنتشي بهذا النصر السهل!

فلما قاربت الساعة الخامسة، توجه إلى قصر الفيكونتس دي بوسيان، فوجد في انتظاره ضربة من الضربات التي تحطم الآمال وتذل

الكبرياء. فإن الفيكونتس التي كان يجدها على الدوام باسمة الثغر، مهذبة، حفية، لقيته في هذه المرة بجفاء وضيق، وقالت له في خشونة سافرة:

– يستحيل علي أن أجلس إليك يا مسيو دي راستنياك، في هذه الساعة على الأقل، فإني مشغولة...

وكان هذا حريا أن يرده عن بابها، هذه الساعة على الأقل. ولكنه كان قد تعلق بالنجاح وبدأ في سلوك طريق «الوصول»، فغض من كبريائه، لأنه كان متلهفا على الذهاب إلى حفلة دوقة كاريليانو بأي شكل؛ فبلع الإهانة وقال للفيكونتس:

– سيدتي، لولا أن الأمر يتعلق بموضوع عاجل مهم، لما أتيت إليك وأثقلت عليك. فاغفري لي، واسمحي لي بفرصة أخرى، أراك فيها.. فإني مستعد للانتظار...

فخفت حدة الفيكونتس شيئاً ما، وقالت له:

– ليكن. تعالى لتتعشى على مائدتي هذه الليلة...

فلما كان المساء، جاء إلى قصرها وجدها قد استردت إشراقها ورقتها، فقادته إلى قاعة المائدة حيث كان الفيكونت في انتظارها! وكانت المائدة وأدواتها على مبلغ من الفخامة والترف لم يكن يخطر للفتى ببال؛ فالعصر عصر الأناقة في الطعام، هذا إلى أن الفيكونت مشهود له بأن لذته الوحيدة في الدنيا هي الأكل! فمائدته لها المزيتان: مزية الكيف، ومزية

الكم في وقت واحد..

وقالت الفيكونتس لزوجها أثناء الطعام:

– هل ستأتي معي الليلة إلى الأوبرا الإيطالية؟

– ليس أحب إلى نفسي من هذا كما تعلمين يا عزيزتي، ولكني للأسف مرتبط بموعد آخر.. فهل «داجودا» ليس معك الليلة؟

– كلا...

– إذن خذي المسيو دي راستنياك معك...

فنظرت الفيكونتس إلى إيجين وابتسمت...

في الأوبرا الإيطالية

استقل عربة أنيقة سريعة مع الفيكونتس وقصدا مسرح الأوبرا الإيطالية وما إن دخل وراءها إلى مقصورة من المقصورات الأمامية حتى وجد نفسه هدفا للمناظر المكبرة التي سلطت عليه من كل صوب، فخيل إليه أنه في مملكة من الممالك المسحورة.

وقالت له الفيكونتس:

– أُنظر ها هي مدام دي نوسنجين في مقصورتها التي تبعد عنا بثلاث مقاصير، أما أختها الكونتس دي ريستو ففي الجهة الأخرى وبصحبتها مكسيم دي تراي

والواقع أن الفيكونتس كانت تذرع القاعة بمنظارها مظهرة عدم الالتفات إلى البارونة دي نوسنجين، مع أنها لم تكن غافلة عن أي حركة من حركاتها. وأما الفتى إيجين دي راستنياك فلم تكن له عينان إلا لتأملها والتحديث في محاسنها، وقد انشرح صدر البارونة لهذا الاهتمام الذي يبديه نحوها ابن عم الفيكونتس دي بوسيان الشاب الوسيم ذو الحسب. بيد أن الفيكونتس نبهته بقولها:

– إذا ظللت تركز فيها أنظارك على هذا النحو أثرت فضيحة ولغطا. ولن توفق في المجتمع إذا كنت عازما على أن تلقي نفسك على

الناس إلقاءً كأنك تسقط فوقهم من حالق.

– يا بنت العم. لقد بذلت لي العون وأحطتني برعايتك وحمايتك حتى الآن، فهلا أتممت صنيعك لأنني أرى قلبي قد شغل هذه المرة.

– بهذه المرأة؟

– أجل، والدوقة كارليانو ستقيم حفلا راقصا ستحضره البارونة دي نوسنجين، فأكون شاكراً لو قدمتني للدوقة كي تدعوني إلى حفلتها الراقصة، فيتسنى لي أن أقابل البارونة هناك وأضرب ضربتي الأولى.

– ليكن، فيظهر أنك ستوفق في هواك. فهذا دي مارساي صاحب البارونة مشغول عنها في مقصورة الأميرة جلاتيون. فالبارونة تعاني في هذه اللحظة نيران الغيرة. وليست هناك لحظة أصلح من هذه اللحظة للتقرب من امرأة، ولا سيما إذا كانت امرأة رجل من رجال المال، فهاتيك النساء جميعاً يحببن الانتقام حبا جما.

– وماذا كنت تفعلين لو كنت في مكانها؟

– أتألم في صمت

وفي هذه اللحظة دخل المقصورة الماركيز داجودا فأشرق وجه الفيكونتس إشراقا دل ايجين على أنها تحب الماركيز حبا حقيقياً ليس من قبيل خلاعة الباريسيات ومجونهن الشائع. وتخلى الشاب للماركيز عن مقعده، فابتسمت له الفيكونتس شاكرة هذا الصنيع الذي أملته اللباقة. ثم

قالت للماركيز عند انتهاء الفصل الأول:

– أظنك تعرف البارونة دي نوسنجين معرفة تسمح لك بتقديم المسيو دي راستنياك إليها.

– طبعاً.. وستسر كثيرًا ولا شك بمعرفة الشيفالييه دي راستنياك

ونهض البرتغالي الجميل فتأبط ذراع الشاب وصحبه إلى مقصورة البارونة، فقال لها:

– لي عظيم الشرف يا سيدتي البارونة أن أقدم إليك الشيفالييه إيجين دي راستنياك، من أبناء عمومة الفيكونتس دي بوسيان، فقد كان تأثيرك فيه عظيماً بحيث حملني على إتمام أسباب السعادة له بتقريبه من موضع تقديسه

فابتسمت البارونة وأشارت إلى الشاب بالجلوس في مقعد زوجها الذي لم يكن حاضراً تلك اللحظة ثم قالت له بلطف:

– لا أجد لدي الجرأة يا سيدي كي أطلب إليك البقاء معي، فإن الرجل الذي يسعده الحظ بقرب الفيكونتس دي بوسيان لا يرضى عن قربها بديلاً

فهمس لها الشاب ضاحكاً:

– ولكن يبدو لي يا سيدتي أنني إذا أردت أن أرضي ابن عمي، فيحسب

بي أن أبقى بجوارك. فقبل وصول الماركيز كنا نتحدث عنك وعن شخصيتك الممتازة

– أستبقى معي حقاً يا سيدي؟ إن هذا يسرني كثيرًا لأن أختي الكونتس دي ريستو أطرتك لدي كثيرًا حتى أصبحت في أشد الشوق للتعرف بك

– لقد خدعتك إذن، فهي قد حرمت على بيتها

– وكيف كان ذلك؟

– سأروي لك السبب، وأستميحك العفو أن أفضي إليك بهذا السر. فأنا جار والدك الفاضل في الخان الذي يقيم فيه. وكنت أجهل أن الكونتس دي ريستو ابنته. فبدر مني دون قصد إشارة إليه بحسن نية أغضبت شقيقتك وزوجها. وقد عجبت ابنة عمي الفيكونتس والدوقة دي لانجيه من العقوق. وسمعت بهذه المناسبة من الفيكونتس مقارنة طريفة بينك وبين شقيقتك علمت منها مبلغ حبك وبرك بهذا الوالد الفاضل. ولست أدري كيف لا يحب، ولا سيما منك، فهو يعبدك حبا.

– أشكرك كثيرًا يا سيدي، وأحسب أننا سنكون من خيرة الأصدقاء

وشرعت البارونة تسفه مسلك شقيقتها نحو والدها، وكيف أنها قاست شخصيا آلاما جسيمة حين حملها زوجها البارون على عدم استقبال والدها إلا في الصباح

– إنك يا سيدتي مثل الطيبة الملائكية، وقد أعجبت بك قبل أراك لما سمعت به من فيض المحبة البنوية. ولكن لم أكن أتصور أبداً أن يبز جمالك

صفات خلقك النبيل وقلبك الكريم. حتى إذا دخلت الليلة هذا المسرح ووقع نظري عليك لم أستطع أن أحوله عنك! فاضطرت الفيكونتس إلى لفت نظري وصرفي عن التحديق فيك على هذا النحو. ولكنها لا تدري إلى أي حد تجتذب محاسنك الأنظار. فهاتان العينان الساحرتان، وهاتان الشفتان القرمزيتان، وهذه البشرة الناصعة البياض، وهذه الفتنة التي تشع من كيانك كله.. عفوك! إني أهذي، أعلم هذا، ولكن دعيني بربك أمضي في الهذيان، لأنه يخفف بعض ما بي من الهيمان.

وليس في الوجود ما ينشرح له صدر المرأة مثل سماعها عبارات الثناء؛ فأشد النساء ورعا وأعظمهن تقوى لا تكره هذا الحديث وإن حرم عليها أن تستجيب له. فغير غريب أن تشجع البارونة الشاب إيجين بابتساماتها، وهي تختلس النظر في الحين بعد الحين إلى حيث يجلس دي مارساي في مقصورة جلاتيون، وهكذا بقي الشاب في حضرتها يتلو عليها آياته ويطلق البخور بين يديها إلى أن حضر زوجها البارون ليصحبها إلى البيت.

وما ردى الشاب المسكين أن البارونة كانت شاردة الذهن وهي تتظاهر بالإصغاء إليه، فقد كانت تنتظر من دي مارساي خطاباً من تلك الخطابات التي تمزق القلب وتفتت الأكباد. ولكن الفتى الريفي ظن أنه وجد حظوة لدى البارونة حقاً وصدقا، فعاد إلى الفيكونتس متهلل الأسارير، فصحبها إلى عربتها، ثم مضى إلى الخان وكأنه يطير في الهواء من فرط السرور والاستبشار.

أشجان والد

ما إن وصل الفتى إلى البنسيون حتى صعد السلم وثبا طرق باب حجرة الأب جوريو طرقا شديداً، وما دخل عليه حتى ابتدره بقوله:

– لقد رأيت مدام دلفين يا جاري العزيز

– أين؟

– في الأوبرا الإيطالية

– وهل تمتعت بسهرتها؟ حدثني عنها

ورقد الرجل في فراشه، وسنحت للفتى الفرصة لكي يرى الجحر الذي يعيش فيه والد تلك التي بهرته منذ قليل بترفها وبذخ ثيابها وزينتها. فلم تكن على النوافذ ستائر، وآثار الرطوبة تبدو واضحة فوق الورق الملصق فوق الجدران، والفراش الذي يرقد فيه الشيخ بعيد عن توفير الراحة لجسده الواهن، والأغطية القليلة عبثت بها يد البلى، فامتلأ الفتى امتعاضا وإشفاقا على الرجل. ولكن الشيخ لم يلحظ لحسن الحظ ما ارتسم على وجهه، لأنه كان غارقا في خواطره التي تحوم دائماً حول بنتيه، فسأل إيجين في طيبة تقترب من البلاهة:

– أيهما وجدتها أقرب إلى القلب، مدام ريستو أم مدام دي نوسنجن؟

– بل أفضل مدام دلفين لأنها تحبك حبا جما

فأخرج الشيخ ذراعه من تحت الغطاء وضغط على يد الشاب بحرارة وهو يقول له في تأثر بالغ:

– شكراً لك. وماذا قالت لك عني؟

فأعاد عليه الفتى ما قالته ابنته عنه مزوقا منمقا كي يجبر خاطره الكسير، والشيخ مصغ إليه كأنه يستمع إلى وحي مقدس، فلما فرغ الفتى قال:

– أجل، إن هذه الطفلة العزيزة تحبني كثيرًا. ولكن لا تصدق ما قالته لك في حق أختها انستازى. فالأختان بينهما منافسة شديدة أيهما تحبني أكثر من الأخرى. وأنا أعلم عن يقين أن مدام دي ريستو تحبني حبا شديداً، فأنا أبوهما وأعرف قلبيهما، ولو كان لهما زوجان من ذوي القلوب الكريمة والسرائر الطيبة لكنت أسعد خلق الله. ولكن السعادة الكاملة لم تكتب لأحد في هذه الحياة الدنيا، فقد كان يكفيني من الدنيا أن أعيش في جوارهما، لا لشيء إلا لأراهما تغدوان وتروحان، فأسمع صوتهما وأحس بأنس قربهما. ولكن خبرني، هل كانتا في زينة طيبة؟

– أجل... ولكن خبرني أنت يا سيد جوريو، كيف تكون لك بنتان على هذا القدر من الغنى، وتعيش أنت في مثل هذا المكان؟...

– وما حاجتي إلى أكثر من هذا؟ إن حياتي قد اختزلت في هاتين

البنتين. فإذا نعمتا بالحياة، فإني ناعم البال، وإذا كانت لهما بسط من حرير، فما يضيرني أن تكون أرضي عارية ليس فوقها بساط. وإذا كانت ملابسهما من حرير ودمقس وإستبرق، فما يضيرني ماذا أكتسي وأين أضع رأسي! فإني وأيم الحق لا أشعر بالبرد إذا هما نعمتا بالدفء، ولا سبيل للأحزان إلى نفسي ما شعرتا بالبشر... ولكنك لا تدرك معنى ما أقوله لك الآن إلا حين تغدو أبا، فحينئذ ستعرف قيمة التافه من بغام بنيك، وسيستبد بك الزهو لأنهم خرجوا من صلبك! وستحس أن دمك يتحرك في عروقهم، وأن الدم الذي في عروقك يضطرب بانفعالاتهم، وأن أعصابك تتحرك بحركات جوارحهم وخطو أقدامهم.. فنظرة حزن أو كآبة من إحدى هاتين البنتين تكفي لتجميد دمي! فكيف تأسى على حياتي، وأنا رجل أحيا بهذا الحب الأبوي ثلاثة حيوات لا واحدة وكفى! أجل يا صديقي، إنني لا أتمنى شيئاً سوى سعادة بنتيّ؛ فدلفين هذه إذا وجدت رجلاً يسعدها ويشعرها بالنشوة التي تحسها المرأة إذا شعرت أنها محبوبة ومعشوقة بإخلاص.. أقول أنني مستعد أن أمسح بنفسي حذاء هذا الرجل، وأن أكون له بمثابة الخادم من السيد! ولكن وا أسفاه! فقد علمت من وصيفتها أن هذا السيد دي مرساي إن هو إلا كلب حقير، فهو يسومها عذاب الهجر، حتى لقد قام برأسي أكثر من مرة أن ألوي عنقه فأخنقه بيدي! يا له من بهيم: أمثل هذه الجوهرة الحلوة بين النساء لا تعبد حبا! إن صوتها كغناء البلبل، وقدها كأنموذج الفنان الكامل.. ولست أدري ماذا قام برأسها حتى رضيت بهذا الألزاسي المتكبر دي نوسنجين بعلا لها من دون الرجال جميعاً. لقد كان يلزم لكلتيهما زوجان طيبان جميلان لطيفا المعشر،

ولكنهما تصرفتا على هواهما.

وكان الأب جوريو في «مرافعته» هذه رائعاً في بلاغته، لأنها بلاغة الحديث الصادر من القلب نصاً. فما أقدر العواطف الصادقة على إحداث المعجزات، فهذا الرجل النذر الكلام، الثقيل اللسان، قد جعلت منه عاطفته الكبيرة إنساناً رائعاً وخطيبا مفوها، فانطلق لسانه، وصار في نبرة صوته غنى، وأشرق وجهه وخلقت له شخصية قوية من العدم؛ فأخذ الفتى بما رأى منه وما سمع، فقال له:

– أظنه لا يسوؤك أن تعلم أن مدام دلفين ستقطع صلتها بهذا السيد دي مرساي، لأنه تركها ليتصل بالأميرة جالاتيون، وإنني وقعت منذ الليلة في هوى مدام دلفين، وإنني قد لقيت قبولاً لديها، وأنها دعتني لزيارتها عصر السبت، بعد غد..

– لن تجد أحب لك مني يا سيدي إذا حظيت برضاها عنك! فأنت طيب السريرة، ولا أحسبك ستسومها العذاب. أما إذا أسأت إليها فإني قاتلك!.. آه! أراني أهرف، فعفوا وماذا قالت لك عني؟...

– حملتني إليك قبلة...

– يا رعاك الله... طابت ليلتك يا جاري العزيز، فالبرد في حجرتي شديد، وأراني أبقيتك أكثر مما ينبغي. فرافقتك السلامة، وجزاك الله عني خيراً، فقد أسعدتني بهذا الحديث عن أحب خلق الله إلى قلبي.. ولن أنسى لك هذا الفضل، بل أني سأسعد كلما وقع نظري عليك، لأنك تحمل لي شيئاً من ريح ابنتي العطر!

... وآوى الفتى إلى فراشه، وهو يقول في نفسه:

– يا للرجل المسكين! إن حالته تفتت الأكباد وتلين القلوب التي قدت من حجر صلد..

وابنته التي يعبدها لم تذكره لي بكلمة!

والواقع أن الأب جوريو قد سعد فعلاً بهذا الحديث، ولا سيما لأنه اكتشف في جاره الشاب صديقا حقيقياً يكاشفه بنجوى نفسه ويفهم عنه فقد نشأت بينهما تلك الصلة الوحيدة التي يمكن أن تصل هذا الشيخ بأي إنسان على وجه البسيطة، وتلك الصلة هي الاهتمام المشترك بإحدى بنتيه.

ويقولون أن القلوب تحسن ضرباً من الحساب والاستدلال لا يحسنه منطق العقول، وإنها لا تخطيء أبداً من معرفة أهدافها، وهذا قول يطابق الواقع تمام المطابقة؛ فهذا هو الأب جوريو وقد حرم نعمة قرب بنتيه يحدس دون تفكير فيصيب الحدس أن جاره الشاب إذا توثقت علاقات الهوى بينه وبين دلفين، فإن ذلك سيؤدي بطبيعة الحال إلى زيادة حظوة الوالد لدى ابنته ويوثق اتصاله بها...

وفي الصباح التالي وقد جلس الجميع إلى مائدة الإفطار جعل الأب جوريو يلقي على جاره الشاب نظرات تفيض بالحنان والتعلق، حتى لقد لاحظ النزلاء أن القناع الجامد قد زال عن وجه الشيخ الذي لم يكن يلقي إلى أحد منهم بالاً.

أما الفتى فإنه كان قد جال بفكره قبل النوم في الميادين الشتى التي

تنبسط أمامه، وفكر فيما فكر في فيكتورين تايفير وبائنتها الضخمة التي حدثه عنها فوتران، وفي هذا الصباح التقت نظراته بنظرات الفتاة صدفة، وشعرت الفتاة بالإعجاب بأناقة الفتى في زيه الجديد القشيب.. وأدرك الفتى من نظرتها أنه غير بعيد عن قلبها ولا عن أحلام خلوتها، وأحس كأن مناديا يناديه من فح عميق:

– ثمانمائة ألف فرنكا يا هذا بعد عمولة فوتران!

ولكنه أصم أذنيه عن هذا النداء، وعاد إلى التفكير في ذكريات الأمس الجميلة وما حسب أنه قد أصابه من حظوة في عيني البارونة دلفين دي نوسنجين فقال لوالدها الذي كان بجواره على المائدة:

– كانوا يقدمون بالأمس في الأوبرا الإيطالية رواية "حلاق أشبيلية" لروسين. ولم أسمع وأيم الحق أعذب من هذه الموسيقى. إلا إن من لديه مقصورة دائمة في الأوبرا الإيطالية لسعيد فتلقف الأب جوريو هذه الكلمة كما يتلقف الكلب المدرب إشارة من مولاه..

ثم استطرد الشاب هامسا في أذن الشيخ:

– ولعلك ستلقى مدام دي نوسنجين قريباً، فثق أنها ستلقاك بذراعين مفتوحتين، لكي تعرف منك المزيد عن شخصي، وقد نما إلى أنه يهمها كثيرًا تدعى إلى بيت بنت عمي الفيكونتس دي بوسيان، فلا تنس أن تخبرها أن حبها عندي كفء لإنالتها هذه الأمنية..

بداية حب

بعد أن تناول الإفطار مباشرة خرج إيجين من البنسيون ، وكان يمضي الوقت في النزهة والتسكع، لأنه كان يضيق بهذا المنزل الكئيب، ولأنه كان مكفوفا عن الاستقرار بتلك الحمى المستعرة بداخله، والتي يعرفها تمام المعرفة أحداث الشبان حين تتلألأ أمام مخيلتهم الغضة أحلام خلابة فلما عاد إلى الخان وجد الأب جوريو في انتظاره، فما رآه داخلاً حتى قال له وهو متهلل الوجه:

– هاك خطاباً منها... يا للحظ الجميل!

وفض إيجين الخطاب، وقرأ السطور التالية:

« سيدي

« قال لي والدي أنك تحب الموسيقى الإيطالية، وإنه ليسعدني أن تشرفني بقبول مقعد في مقصورتي، وستقدم يوم السبت أوبرا جميلة، وإني واثقة أنك سوف لا ترفض هذه الدعوة. والبارون دي نوسنجين ينضم إلي في التوجه إليك بالرجاء لتناول العشاء تلك الليلة. فإذا تفضلت بالقبول أعفيته من الواجب الزوجي الثقيل الذي يحتم عليه مصاحبتي إلى الأوبرا... وتقبل تحياتي.. دلفين دي نوسنجين»

فقال الفتى في نفسه:

– ما من امرأة تلقي نفسها هكذا على شاب من أول وهلة. فلا ريب أنها ترمي إلى استغلالي في إثارة غيرة صاحبها الهاجر دي مرساي كي تسترده.. فهي المكايدة والانتقام لا الحل والهيام.

وقطع الأب جوريو عليه حبل التفكير بسؤاله:

– فيم تفكر؟

وكان قد غاب عن علم الفتى مبلغ ما للمظاهر من سلطان على نساء المجتمع في باريس، حتى أن زوجة رجل لا يعدو أن يكون من رجال المصارف تطيب نفسا بالإقدام على أي تضحية في سبيل الوصول إلى شرف التردد على قصور الأشراف المعروفين في ضاحية سان جيرمان.. ولم يجد الفتى مانعا من الاستفادة من الظرف المواتي، فأجاب على سؤال الأب جوريو بقوله:

– طبعا سأذهب..

وهكذا ساقه حب الاستطلاع إلى دار مدام دي نوسنجين، في حين أنها لو كانت تجاهلته أو ازدرته لكانت العاطفة هي باعثه على هذه الزيارة وليس مجرد حب الاستطلاع، ومع ذلك فإنه لم يخل من تشوق ولهفة على الذهاب في الموعد المضروب في اليوم التالي.

ووصل راستنياك إلى شارع سان لازار، فوجد دار البارون واحدة من تلك الدور الجديدة التي تنم عن ثروة مستحدثة، وهي مزوقة ومزركشة في

تكلف وإسراف. وكانت البارونة جالسة متكئة في صالون صغير يشبه في زينته المقاهي إلى حد كبير. فحز هذا في نفس الشاب الذي كان يحسب أن مجرد حضوره كاف لإدخال البشر على قلب أي امرأة. لهذا قال لها:

– ليس لي كبير حق في معرفة أسرارك يا سيدتي، ولكن في مرجوي على الأقل أن تصارحيني ببساطة إذا كان وجودي معك يثقل عليك

– بل ابق... فإنك إذا مضيت بقيت وحدي، ذلك أن نوسينجين سيتعشى في المدينة، وأنا لا أريد أن أنفرد بنفسي، فالتسلية لازمة لي أشد اللزوم.

– ماذا بك؟ خبريني وإلا ظننت أن لي ضلعا في همومك

– يا صاحبي هذه هموم ناشئة عن اختلافات بيني وبين زوجي. ألم أقل لك أمس الأول إنني لست سعيدة في حياتي؟ إني مقيدة بقيود من ذهب..

– وماذا ينقصك؟ فأنت جميلة وشابة ومحبوبة وغنية..

– دع الحديث عني جانبا؛ فقد أتيت لنتعشى على انفراد ثم نمضي معا لسماع الموسيقى فخبرني هل تروق زينتي في نظرك؟

وقامت لتريه ثوبها من خلف ومن قدام، وهو من الكشمير الأبيض تزينه نقوش فارسية من آنق ما يكون

– كم أتمنى أن تكوني لي وحدي، فأنت فاتنة!

– لن تهنأ بهذا لو تحقق، فإني امرأة شقية

– ما أشوقني إلى معرفة علة كآبتك

– لو صارحتك بها لتجنبتني

– اسمعي! إذا كانت تثقل على صدرك الهموم فلن تجدي خيرا مني للإفضاء بها إليه! فأنا أريد أن أبرهن لك أنني أحبك لذاتك، فإما أن تكاشفيني بآلامك حتى أجتهد في القضاء عليها ولو كلفتني قتل ستة رجال، وإلا فارقتك إلى آخر الزمان.

فخطرت لها فكرة يائسة جعلتها تدق جبهتها بيدها وهي تصيح:

– سأضعك موضع اختبار. أجل، لم يعد أمامي سوى هذه الوسيلة بالذات

ودقت الجرس فدخل الوصيف وأمرته بإعداد عربة البارون لكي تخرج فيها. ثم نهضت وأشارت إلى إيجين أن يتبعها وهو يحسب نفسه في حلم، فاستقلت معه عربة زوجها وصاحت بالسائق:

– إلى الباليه روايال بالقرب من المسرح الفرنسي

وكانت طول الطريق تبدو مضطربة ورفضت الإجابة على الأسئلة الكثيرة التي ألقاها عليها إيجين لما ركبه من الحيرة.. فلما وقفت العربة حملقت البارونة في الشاب ثم سألته:

– أتحبني بإخلاص؟

– لا شك في ذلك

– أ إلى درجة عدم إساءة الظن بي مهما طلبت إليك؟

– نعم.. ولا ريب

– وهل أنت مستعد لإطاعتي طاعة عمياء؟

– كل الطاعة.!

– هل تتردد على موائد اللعب؟

– على الإطلاق

– آه... إني أتنفس الصعداء لهذا الجواب، فإن معنى هذا أنك سترْبح. فخذ هذه المائة فرنك، وأعلم أنها كل ما تملكه تلك المرأة التي ظننتها في أوج السعادة. فاصعد إلى بيت من بيوت الميسر الموجودة في هذه المنطقة وغامر بالمائة فرنك في لعبة يسمونها الروليت، وافقد كل شيء أو رده إلي ستة آلاف فرنكا، وأعدك أن أحدثك عن أشجاني عند عودتك

– لتتخطفني الأبالسة إذا كنت قد فقهت شيئا مما قلته لي الآن. ولكني مطيع أمرك كما وعدتك..

وقال الفتى في نفسه وقلبه يرقص طربا بين جنبيه:

– أراها تتآمر معي، ومعنى هذا أنها لن تجرؤ على صدي بعد الآن...

المائدة الخضراء

تلقى إيجين منها كيس النقود الأنيق، واتجه إلى المنزل رقم ٢٩بعد أن دله عليه أصحاب الحوانيت في الشارع.

صعد السلم، وسأل عن «الروليت»، فقاده النادل إلى مائدة طويلة ولفت الفتى أنظار زبائن المائدة الخضراء المدمنين، لأنه كان بادي الجهل باللعبة، فالتفوا حوله مستطلعين، فإذا به يسأل في سذاجة:

– أين ينبغي أن أضع النقود؟

فأجابه شيخ عليه وقار المشيب:

– إذا أنت وضعت مبلغا على رقم من هذه الأرقام الستة والثلاثين، ووقفت العجلة على هذا الرقم، أخذت مبلغك مضاعفا ستا وثلاثين مرة

فوضع إيجين المائة فرنك على الرقم الدال على عمره، وهو واحد وعشرون. ودوت في القاعة صيحات الدهشة قبل أن يتبين الفتى علة هذه الضجة.. فقد ربح وهو لا يدري!

فقال له السيد المسن:

– خذ مالك وانصرف، فإن المرء لا يربح مرتين متواليتين على هذا النهج

وتناول إيجين المال، فاقتطع منه ثلاثة آلاف وستمائة فرنك، وضعها بكل سذاجة على اللون الأحمر.ودارت العجلة وكسب مرة أخرى، فأعطاه الموكل بالمائدة ثلاثة آلاف وستمائة فرنك أخرى. ومال الشيخ على أذن الفتى وقال له بإلحاح:

– لقد ربحت سبعة آلاف ومائتي فرنك، فإذا أردت نصيحة خالصة فانصرف لتوك، فإن اللون الأحمر قد خرج حتى الآن ثماني مرات متوالية. وإذا كان في قلبك ميل إلى الرحمة ففي وسعك أن تقدر نصيحتي قدرها بأن تخفف وطأة البؤس عن محافظ سابق من رجال نابليون أصبح في حاجة ماسة إلى المساعدة.

وفي غمرة هذا الجو أعطى الفتى الرجل مبلغا من المال يصل إلى مائتي فرنك تقريبا وانطلق بالسبعة آلاف فرنك وهو يكاد يكون أجهل بألعاب المائدة الخضراء منه حين أقبل عليها، ولكنه كان شديد السرور بحظه المواتي. فلما دخل العربة التي تنتظره فيها البارونة وأقفل بابها قال لها وهو يريها السبعة آلاف فرنك:

– والآن إلى أين؟

فاحتضنته دلفين لشدة فرحها وقبلته بحرارة ولكنها لم تكن قبلة صادرة عن رغبة أو عاطفة غرام، وهتفت به:

– لقد أنقذتني..

وكانت دموع الفرح تنهمر على خديها حين استطردت لاهثة:

– والآن سأدلي لك بالمسألة كلها، فأنت صديقي، أليس كذلك؟ أنك تظنني غنية تحت يدي المال بغير حساب ولا ينقصني شيء. فأعلم إذن أن البارون دي نوسنجين لا يدع لي التصرف في درهم واحد؛ فهو يدفع بنفسه نفقات البيت ونفقات عرباتي ومقاصيرى في المسرح ويسمح لي بميزانية ضئيلة جدا للثياب والزينة ويلاحقني بالحسابات الدقيقة والمراجعة في كل باب من أبواب المصروفات وكبريائي تحول دون التوسل إليه أو بيع عواطفي له بإظهار التودد والهيام في نظير الحصول على مزيد من المال منه. مع أن بائنتي تبلغ سبعمائة ألف فرنك. فقد تزوجته وأنا صغيرة السن بحيث كانت عبارات طلب المال – ولو كان مالي– تقف في حلقي. فكنت أعتمد على ما يمنحني إياه أبي. فلما غاض هذا المعين تورطت في الدين. حتى أصبح الزواج في نظري خيبة أمل مرة، فكرهت هذه الحياة المشتركة بحيث لا أتردد في الانتحار إذا أجبرت على الحياة حياة تخالف ما نحن عليه الآن من اختصاص كل واحد منا بمخدعه الخاص، فهو رجل فظ. وتصور يا صديقي مبلغ تعاستي حين أبى اليوم أن يعطيني ستة آلاف فرنك، مع أنه يعطي هذا المبلغ كل شهر لعشيقته، التي ليست إلا فتاة من راقصات الأوبرا الخاملات.. لقد خطر لي أن أنتحر.. فماذا أصنع؟ أألجأ إلى أبي؟ إنه لا يستطيع لي الآن شيئا، فقد جردناه – أنا وأختي أنستازي– من كل ما كان لديه، وأنا أعلم أنني لو طلبت إليه هذه الستة آلاف فرنك لأقدم على بيع لحمه إن استطاع ليوفر لي هذا المبلغ... ولكني سأزعجه في غير طائل، فيزيد همه ويستفحل ألمه. وها أنت ذا

أنقذتني من الفضيحة والموت.. وهذا يا سيدي تفصيل ما رأيتني أقدم عليه من الفعل المستغرب.. ولا تظنني وحدي في هذا الوضع الشاذ، فنصف عقائل باريس يعانين ما أعاني، ويثقل عليهن العيش في بيوتهن، وإن بدين أسعد الخلق وأكثرهم بحبوحة ويسارا. بل إني أعرف من هن أشد شقوة مني، فثمة سيدات يجعن أولادهن، لكي يتمكن من شراء ثوب جديد، أو يزورن في «فواتير» نفقات البيت. أما أنا فأستنكف من هذا الخداع، ولا أقبل أن أنيل زوجي ما هو حل له مادمت لا أضمر له الحب!

مع أن نوسنجين يتمنى رضاي، وهو على استعداد إذا دفعت الثمن أن يغرقني في الذهب، ولكني أفضل أن أبكي على صدر صديق حنون من أن أبيع نفسي لهذا الزوج الفظ، وشكرا لله، فإن دي مارساي لن ينظر إلي الليلة نظرته إلى امرأة دفع لها ثمن الهوى!

ثم غطت وجهها بيديها حتى لا يرى الشاب دموعها، ثم التفتت إليه وقالت:

– عدني أنك لن تستخدم ضدي سرى هذا...

فلما وعدها تناولت يده وشدت عليها، ثم أعطته ألف فرنك من السبعة آلاف، فاحمر وجه الفتى ورفض بشدة، بيد أنها قالت له في إصرار:

– سأشعر إذا لم تكن شريكي أنك عدوي

– سآخذها إذن، ولكن عديها مالا مدخرا تطلبينه متى شئت

– ليكن، على شرط واحد: أن تقسم لي ألا تعود إلى المائدة الخضراء أبدا.. رباه! كيف أغفر لنفسي أنني أفسدتك وعرضتك للغواية!

ووصلت بهما العربة إلى دار البارونة، فأخذته إلى جناحها الخاص، واستمهلته حتى تكتب خطابا نعتته له بأنه خطاب عسير. فهي تريد أن ترسل الستة آلاف فرنك إلى مسيو دي مارساي، فهو قد أقرضها إياها وهي كارهة، لأنها لا تريد أن ينظر إليها نظرته إلى بائعة هوى..

فقال لها إيجين:

– ولماذا تكتبين؟ ضعي أوراق النقد في مظروف، واغلقيه واكتبي عليه العنوان، وكفى، ثم أرسليه مع وصيفتك

– لله ما أحسن رأيك. ولا عجب! فتلك أساليب أبناء البيوتات تهديهم إليها بصيرة نافذة وفطرة سليمة راقية.

وفعلت ما أشار به عليها، وأرسلت وصيفتها تيريز بالخطاب إلى دار «دي مارساي»، وكان العشاء قد أعد، فقاما إلى قاعة المائدة، فإذا مائدة فاخرة حقا. وقالت البارونة وهي تجلس قبالته:

– في جميع الليالي التي نذهب فيها إلى الأوبرا الإيطالية، أنت مدعو للعشاء معي هنا، ثم تصحبني إلى الأوبرا...

– كان يسرني أن أتعود هذه الحياة الناعمة الرخية، لو أنها تدوم، ولكن ماذا أصنع وليس لطالب فقير مثلي أن يقدر على هذا المستوى

العالي من الحياة؟

– لا تقلق من هذه الناحية، ولتكن لك في مسألتي عبرة: فمن كان يقدر أن أموري ستسوى على هذا النحو فأنتقل من هاوية الشقاء إلى قمة السعادة؟

وتناول إيجين يد البارونة وضغط عليها شاكرا...

وفي مقصورتها بالأوبرا، تشابكت يداهما معظم الوقت، يتناجيان باللمسات كلما حركت أشجانهما الموسيقى الرقيقة. وكانت هذه السهرة من أمتع الليالي وأكثرها سحرا ونشوة للشابين. حتى إذا انتهت الرواية، أصرت البارونة على توصيل الشاب إلى قرب بيته، مع أنها ظلت تصده وتذوده طول الطريق عن قبلة كان ينازعها إياها.. وقد شاقه طعم القبلات التي غمرته بها قرب الباليه رويال، عندما عاد إليها بما كسب من النقود.

وتكدر إيجين لهذا التغير الذي جعلها تضن عليه بقبلة يلتمسها وهي التي منحته قبلات بلا التماس منذ ساعات، فلما سألها تفسير هذا التناقض الظاهر، قالت له:

– تلك كانت قبلات عرفان الجميل، لما صدر عنك من إخلاص غير متوقع.. أما الآن فالقبلة معناها الوعد والتأميل..

– وهل ترفضين أن تعديني وتمنيني بالسعادة؟

وبدا عليه الغضب، ندت منه إشارة ضيق وتبرم، فمدت إليه يدها في

دلال يذيب قلب العاشق الولهان لكي يقبلها، فرفعها إلى فمه في اضطراب وارتباك سر لهما قلبها، لأنها استدلت من ذلك على عشقه لها عشقا عميق الجذور في نفسه؛ فقالت له وهو يغادر العربة:

– إلى اللقاء يوم الاثنين، في الحفلة الراقصة عند الماريشالة كاريليانو...

واستأنف الفتى طريقه على قدميه، في صمت الليل وضياء القمر، وكأن في صدره عصفورا يغني..

الدرس الثالث

وكان الأب جوريو قد ترك باب غرفته مفتوحا كما ترك شمعته مضاءة حتى لا ينسى إيجين عند عودته في ساعة متأخرة أن يدخل إليه توا فيحمل إليه آخر الأخبار عن ابنته وكيف بدت تلك الليلة وإلى أي حد كان تمتعها بالسهرة والسماع. ولم يخف إيجين عنه شيئا مما حدث. فأخذت الشيخ نوبة من الغضب والحمية وصاح:

– إنهما تظنانني معدما. وهذا خطأ محض، فما تزال في حوزتي ثروة تمدني بدخل سنوي يصل إلى ألف وثلاثمائة فرنك. يا إلهي! لماذا لم تأت البنية المسكينة إلى أبيها، ولماذا حملت في صدرها الصغير اليافع كل هذه الآلام دون أن تشركني فيها؟ إني كنت خليقا أن أبيع جانبا من هذا الدخل، فأنا رجل قليل المطالب ضئيل الأرب في متاع الحياة، ولماذا لم تبادر بإخباري في الحال بما تعانيه ابنتي من ضيق؟ وكيف طاوعك قلبك يا جاري العزيز أن تغامر على المائدة الخضراء بفرنكاتها المائة؟ إلا أنه دون هذا وتنفطر أكباد غلاظ وقلوب شداد! أهذه إذن هي الزيجات الناجحة والمصاهرة التي ترفع الرأس؟ والله لو ملكت رقبتي زوجي بنتي لما تركتهما يعيشان لحظة واحدة ولخنقتهما خنقا! يا إله السماء! أتقول أنها بكت؟ هل بكت حقا؟

– نعم ورأسها على صدري

– أعطنيه! أعطنيه حالا! أليست عليه قد سقطت دموع ابنتي أنا؟ دموع عزيزتي دلفين التي لم تبك أبدا وهي طفلة، لأنني لم أكن أمنعها شيئا. سأشتري لك صدارا غيره، فلا تلبسه ودعه لي! إنها صاحبة الحق في استغلال ثروتها الخاصة كما نص على ذلك في عقد الزواج. وسأذهب إلى المحامي منذ الصباح وأطلب حسابا دقيقا من هذا الزوج الغادر عن أموال ابنتي. أجل إنني قد أصبحت الآن ذئبا عجوزا بلا أسنان، ولكني سأسترد ما سقط من أسناني لأؤدب هذا الوغد!

– خذ أيضًا هذه الألف فرنك وضعها في الصدار لأنها أصرت أن آخذها مما ربحت لها، فاحتفظ لها بها

فرشق الأب جوريو إيجين بنظرة فياضة بالامتنان وتناول يده فشد عليها وأسقط عليها دمعة دافئة وهو يقول له:

– ثق يا بني أنك ستصادف النجاح في أمورك، لأن الله عادل، ولأن أمثالك في الدنيا قليل، فهل لك أن تكون لي بمثابة الولد فيصبح لي ابن وبنتان؟ اذهب الآن ونم، فانك مستطيع في هذه الفترة من حياتك أن تنام ملء جفنيك، لأنك لم تصبح بعد أبا.. لقد بكت، بكت، هي بكت. وها أنا ذا أتلقى هذا النبأ في حين أنني كنت وقت بكائها مشغولا في تناول الطعام كأي حيوان بهيم.

فلما أوى الشاب إلى حجرته واستعد للرقاد جعل يقول في نفسه:

– لعمري من الخير أن يحيا الإنسان معتصما بالشرف والاستقامة

فإن راحة الضمير هي المتعة الكبرى في الحياة...

وفي اليوم التالي ذهب إيجين إلى دار الفيكونتس دي بوسيان كي يصحبها إلى المرقص المقام في دار الماريشالة دي كاريليانو، حتى تقدمه إليها. وفي صالون الماريشالة تهلل وجهه عندما وقعت عيناه على دلفين نوسنجين بين الحاضرات وتبين الفتى في هذه الحفلة أي مزية حصل عليها فارتفع بها قدره إذ اشتهر بين الناس بأنه ابن عمر الفيكونتس دي بوسيان، وأضف إلى هذا ما تناقلته الألسن من توثق العلاقة بينه وبين البارونة دي نوسنجين الحسناء، فأصبح موضع الحفيظة والحسد من كثيرين من الشبان، وطرق سمعه طرف من أحاديثهم عنه فانتفخت أوداجه

وأجدى هذا عليه من جهة أخرى لأن دلفين خشيت أن تفقده إذا هي تدللت عليه كثيرا فوعدته عند الانصراف بتلك القبلة التي منعته إياها في المرة السابقة.

وفي تلك الحفلة قدمته الفيكونتس إلى كثيرات من العقائل وتلقى منهن دعوات كثيرة للتردد على صالوناتهن، فأضحى في لحظة واحدة يملك جواز المرور إلى أرقى الأوساط في العاصمة الفرنسية فلما كان الصباح وجلس نزلاء الخان إلى مائدة الإفطار، جعل يقص على مسمع منهم على الأب جوريو ما لقيه من توفيق في ذلك الحفل، فابتسم فوتران ابتسامة خفيفة وقال:

– وهل تعتقد أنه يمكن لشاب أن ينجح في المجتمع العالي إذا ظل مقيما

في هذا المكان الحقير وفي هذا الحي المتواضع؟ ألا فاعلم يا صديقي الشاب أنك إذا رمت النجاح حقا والتبريز في المضمار الاجتماعي، أنه ينبغي لك ثلاثة جياد، وعربة لنزهة الصباح، وأخرى لسهرات المساء، وتلك وحدها لا تكلفك أقل من تسعة آلاف فرنكا يضاف إليها ثلاثة آلاف أخرى في السنة للطرزي وستمائة فرنك للعطور، وخمسمائة فرنك للأحذية ومثلها للقبعات، أما الغسالة فلا تكلفك إلا ألف فرنكا، فالشبان المتأنقون يحرصون أشد ما يحرصون على ارتداء الأقمصة في غاية من النظافة، ومجموع هذه النفقات أربعة عشر ألف فرنكا سنويا لا يدخل فيها ما ينبغي أن ينفق عن سعة على مائدة القمار وفي الهدايا التي تقدم في المناسبات، فخذ كلامي هذا قضية مسلمة لأنني جربت هذه الحياة بنفسي فيما مضى، ووجدته لا تتيسر بأقل من خمسة وعشرين ألف فرنكا. ثم لا تنس أنه ينبغي أن يكون لك وصيف أنيق مهذب، أم ترى سيقوم كريستوف خادم خاننا الأزلي بحمل رسائل الغرام؟ وهل ستكتب تلك الرسائل في أوراق الكراسات المدرسية؟ إن هذا سيكون بمثابة انتحار اجتماعي لو فعلته، فصدق نصيحة صديق مخلص يحفل وطابه بتجارب العمر، وتخير منذ الآن لنفسك إحدى خطتين: إما حجرة في السطح وكدح في سبيل العيش، وإما خطة أخرى تختلف عن نمط هذه الحياة كل الاختلاف.

وغمز فوتران بعينه إلى جهة الآنسة دي بايفير، على سبيل تذكير الشاب بما تحدثا فيه من أمرها.

إذعان

كان إيجين دي راستنياك في موقف دقيق محير، وقف مثله معظم الشبان العاشقين: فالبارونة دلفين دي نوسنجين عرضته على درجات الجحيم التي يعرفها أهل الهوى الصادق، واستخدمت في ذلك أقصى فنون السياسة الأنثوية التي تعرفها باريس؛ فهي بعد أن اكتسبت في نظر الكافة سمعة الاستئثار بعواطف ابن عم الفيكونتس دي بوسيان، لم تنله من نفسها ما كان يؤهله له ظن الناس من أمره معها. فظلت نحوا من شهر تلهب حواسه وتلعب بها، حتى كاد ييأس من حبها .. فهل كان هذا تدللا من البارونة، أم تلاعبا، أم هو حساب مقصود وخطة موضوعة؟

ربما كان الأمر على خلاف هذا إطلاقا. فمن الجائز أنها بعد أن قربت الفتى، وأحست له عليها تأثير كبيرا، تحركت كبرياؤها فمنعتها من السقطة الأخيرة. كما أنه من الجائز أيضًا أن تتأنى الباريسية كثيرا قبل الاستسلام النهائي لعاشقها، حتى تمتحن الخلاصة وتعرف حقيقة ما ينطوي عليه قلبه. وهذا هو الاحتمال الراجح على سواه، فقد خابت آمال البارونة في عشقها الأول، ومنيت بفشل ذريع! فلها العذر كل العذر إذا لزمت الحذر. يضاف إلى هذا أنها قد تكون استشفت في الفتى بعد نجاحه الاجتماعي الخاطف ميلا إلى الغرور والاستهانة بقيمة الحظوة عندها، فأرادت أن تفرض احترامها على شاب لا يزال في حداثة السن، حتى ترده إلى حسن التقدير، فلا يظنها امرأة سهلة تبذل نفسها لكل طارق يدق

باب قلبها، أو باب مخدعها.

ومهما يكن من أمر هذه الأسباب أو المبررات، فالحقيقة التي لا شك فيها على كل حال أن دلفين ماطلت الفتى الوصال، ولعبت بعواطفه، ولذ لها هذا اللعب، كما يلذ للهرة أن تلعب بفريستها، واثقة من النصر، ومن وقوع الفريسة بين براثنها في أي وقت تشاء.. ولم يشأ إيجين أن تكون خاتمة مغامرته الأول فشلا محضا، فلزمها ولم ينفض يده منها رغم ما لقيه من عذاب أليم.

ولكن هذه الفترة التي قضاها الفتى فريسة للشد والجذب والمنح والمنع كلفته تلك العلالة من المال التي كانت قد تجمعت بين يديه بثمن غال من تضحيات الوالدة والشقيقات. وكم من مرة ثقل عليه فيها ضيق ذات اليد فخطر بباله أن يضرب عرض الحائط بصوت ضميره ويستسلم لما عرضه عليه فوتران من الزواج بالآنسة دي تايفير، وحدث فعلا في لحظة من لحظات القنوط – وكان وحيدا مع مدام فوكير ومدام كوتير وفيكتورين – أن رشق الفتاة بنظرة ناطقة بالرقة، فغضت الفتاة بصرها ثم سألته بعد لحظة صمت قصيرة:

– أتشكوهما دفينا يا سيد إيجين؟

– وأي امرئ لا يطوي صدره على هم؟ ولو أننا معاشر الشبان وثقنا من أن ثمة قلوبا تنطوي لنا على الحب الصادق نظير ما نتحمله من إرهاق الحياة لما طرق الهم قلوبنا

فرمقته الفتاة بنظرة لا يختلف في تأويلها اثنان؛ فهمس لها الفتى:

– أنت اليوم واثقة من قلبك يا آنسة، ولكن هل تضمنين أنه لا يتغير بفعل الأيام؟

فطافت بشفتي الفتاة المسكينة ابتسامة كأنها شعاع باثق من روحها فأضفت على وجهها وضاءة ارتاع لها الفتى، لأنه أدرك منها أي بركان كان خامدا من العواطف والانفعالات تعرض له ليحرك كوامنه، ولكنه استطرد يسألها:

– إذا واتتك أسباب الثراء غدا من حيث لا تعلمين، بقيت على حب شاب فقير كان قد راق في عينيك أيام بؤسك ومسغبتك؟

فأومأت له برأسها إيماءة لطيفة

– شاب فقير جدا إلى درجة الإعدام

فأومأت إليه مرة أخرى جوابا على سؤاله

وفي هذه اللحظة صاحت بهما مدام فوكير من الطرف الآخر للصالون حيث كانت تجلس مع مدام كوتير قائلة:

– بماذا تهرفان؟

فصاح بها إيجين:

– دعينا وشأننا فإننا نتفاهم

– أنستطيع أن نأمل إذن في إعلان قريب لخطبة الشيفالييه إيجين دي راستنياك والآنسة فيكتورين تايفير؟

وقيلت هذه العبارة بصوت أجش عريض هو صوت فوتران الذي ملأ جسمه الضخم فراغ باب القاعة، فتدخلت مدام كوتير وقالت:

– كفى دعابات نائية عن موضعها! هيا بنا نصعد يا ابنتي

وصحبت مدام فوكير السيدة والفتاة لتقضي السهرة في حجرتهما تغزل الصوف وتوفر شمعتها التي تنيرها في حجرتها. فبقي إيجين وفوتران وحدهما وجها لوجه، فرشق فوتران الفتى بنظرة نافذة وقال له:

– كنت أعلم أنك ستنتهي إلى النزول عند رأيي. بيد أني أنصحك ألا تبت الآن في الأمر لأنك لست في حالتك العادية في هذه اللحظة؛ فأنت غارق في الدين، وأنا لا أريد أن يكون قرارك صادرا عن اندفاع عصبي، بل عن تفكير منطقي هادئ. أما الآن فإذا كان يعوزك مبلغ من المال، فخذ ما تشاء.

وأخرج هذا الشيطان من جيبه حافظة منتفخة بالأوراق المالية أعطى منها الفتى ثلاثة آلاف فرنكا. وكان إيجين في هذا الوقت بالذات في أشد حالات العسر المالي؛ فهو مدين للماركيز داجودا وللكونت مكسيم دي تراي بخمسمائة فرنك خسرها أمامهما في القمار. وهو لا يملك هذا المبلغ

ومن ثمة فهو غير مستطيع أن يذهب لقضاء السهرة عند الكونتس دي ريستو التي عدلت عن إيصاد بابها في وجهه بعد النجاح المدوي الذي لقيه في المحافل والمجتمعات، لهذا كان الفتى يشعر بضغط هائل على أعصابه وهو يقول لفوتران:

– أنت تعلم جيدا يا سيدي أنه يستحيل علي بعد الذي أفضيت إلي به أن أكون مدينا لك بأي شكل من الأشكال

– يعجبني منك هذا الكلام. وإني أوافقك عليه. فلن تكون مدينا لي بشيء من الفضل إذا أنا تقاضيت ثمن هذه الخدمة مبلغا من المال. فهاك سند أكتب فيه بخطك أنك تتعهد بدفع ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك بعد عام من هذا التاريخ. فالفائدة التي تبلغ خمسمائة فرنك مسكن كاف لوساوسك وهواجسك، لأنه تجعلك غير مدين لي بأي فضل، وتسمح لك بإرضاء كبريائك كما تشتهى عن طريق احتقار ذاتي المتواضعة. وأني أقبل هذا عن طيب خاطر عالما أنك ستنقلب إلى حبي في يوم من الأيام عندما تحمد عاقبة نصحي لك وأني والله لفي عجب من تغير الأحوال في هذا الزمان؛ ففيما مضى كان المرء ينقد رجلا من أهل الشجاعة خمسمائة فرنك ويقول له: اقتل لي فلانا من الناس، ثم ينصرف إلى تناول طعامه بنفس مطمئنة. أما اليوم فها أنا ذا أعرض عليك ثروة طائلة في نظير إيماءة من رأسك لا تكلفك شيئا ولا تورطك في شيء، ولكنك مع هذا تقف مترددا. يا للجيل الخرع.!

فوقع إيجين السند وتسلم الثلاثة الآلاف فرنك، واستطرد فوتران:

– والآن فلنتحدث فيما يجدي: فأنا أريد السفر إلى أمريكا في ظرف بضعة أشهر، لكي أتفرغ لزراعة الطباق وأرسل إليك من هناك لفائف التبغ الفاخر تذكارا لصداقتنا، فإذا أصبت ثروة فإني عازم على مساعدتك، وإذا لم أنجب أطفالا فسأوصي لك بثروتي، فأنا أشعر نحوك بعاطفة حب صادق، وأنا من ذلك الطراز من الرجال الذي يقدس العواطف ويعيش لها: ذلك أني أعيش في فلك أعلى من المستوى العادي للناس، فليست الأعمال عندي شيئا مذكورا لأنها مجرد وسائل، والغايات وحدها هي التي تعنيني. وما الإنسان في نظري؟ هو كل شيء أو هو لا شيء! هو لا شيء بل هو أقل من الهباء وأهون من العدم والعفاء إذا كان على غرار جارنا بواريه، فهو والبرغوث سواء وليس سحقه جريرة أكبر من سحق بقة، فهو تافه فدم لا حيوية فيه ولا شخصية له. أو هو كل شيء، بل أنه أقدس من الإنسان، هو إله إذا كان على غرارك مملوءا بدفعات الحياة، وليس مجرد آلة صماء تأكل وتشرب وتتلهى! لأنه يعيش بعواطفه، والعواطف عندي هي لباب الحياة، فما العاطفة إلا العالم كله ملخصا في حركة من حركات الوجدان. أُنظر إلى هذا الأب جوريو: بنتاه هما العالم أجمع لديه، وأنا مثله ولكنني أرى أن العالم أجمع يتلخص في عاطفة الصداقة التي تربط بين رجل ورجل. وهذا كل ما عندي قد أفضيت إليك به، واثقا أنك ستنتهي إلى حكمة الزواج من هذه الفتاة.

وانصرف فوتران قبل أن يسمع إجابة الشاب، كأنه واثق أن الاعتراض أو الرفض لا قيمة له أمام الظروف التي يضمرها المستقبل

وقال الفتى يخاطب نفسه وهو يتحسس الثلاثة آلاف فرنكا:

– فليفعل ما يحلو له، فإني لن أتزوجها

ولما هدأ روعه قليلا قام فارتدى ملابسه واستقل عربة إلى قصر مدام دي ريستو، فأدى إلى دي تراي وداجودا دينهما، ثم لعب لعبة «الويست» الإنجليزية التي شاعت في المجتمعات الباريسية الراقية فاسترد ما كان قد خسره، وخيل إليه أن هذا الحظ السعيد قد كافأته به السماء لتمسكه بطريق الاستقامة في مسألة الزواج بالآنسة دي تراي، ذلك الزواج الذي يخفي الرضى بجريمة قتل.

فلما كان الصباح التالي أسرع إلى فوتران وطلب منه السند ورد له الثلاثة آلاف فرنكا مزهوا، فابتسم الرجل ابتسامة الخبير بأطوار الشباب، وكأنه يقول: من يعش يرى...

مؤامرة أخرى

وبعد يومين شوهد بواريه والآنسة ميشونون جالسين مع شخص ثالث عند المنحني المؤدي إلى حديقة النباتات. وكان الشخص الثالث هو الرجل الذي ينادونه بالسيد جوندورو. وكان هذا السيد يحاول إقناع السيدة ميشونون بأمر تظهر التردد في إمضائه

– ... ولست أرى يا آنستي ما يبرر هواجسك مع أن السيد وزير الأمن العام في المملكة...

فصاح عندئذ بواريه:

– السيد وزير الأمن العام!

– ... أجل السيد الوزير بنفسه مهتم بهذا الموضوع

وكانت كلمة السيد الوزير كافية لاستيلاء الخشوع على السيد بواريه الموظف المتقاعد الذي قضى حياته في التعبد لأي وزير، فالوزير له من القداسة عند مثله ما لبابا روما عند جماعة المؤمنين بالكثلكة، فهو نقي طاهر معصوم من الخطأ، تحيط هالة من التقديس بجميع أفعاله بل باسمه المجرد. ويبدو أن السيد جوندورو قد استطاع أن يسبر غور بواريه فتعمد ذكر اسم السيد الوزير حتى يستولي على إرادة هذا الرجل، كما تستولي دقات الطبول العسكرية على حركات الجواد الحربي المدرب. وبالفعل أنشأ

بواريه يضغط على الآنسة ميشونون كي تستجيب لرغبة السيد الفاضل مندوب وزارة الأمن العام. واستطرد جوندورو يقول ضاربا على هذا الوتر الحساس:

– إن السيد الوزير لديه من الأسباب ما يحمله على الاعتقاد بأن المدعو فوتران والقاطن بخان فوكير إن هو في الحقيقة إلا مجرم هارب من الليمان مشهور باسم قاهر الموت.. فإنه أوتي من حسن الطالع ما جعله يفلت من الموت بما يشبه المعجزة مرارا عديدة مع شدة جرأته ومجازفته. فهذا الرجل شخص خطر ولكنه غريب الأطوار؛ فهو لا يخلو من شهامة وأريحية، فهو مثلا قد حكم عليه في المرة الأخيرة لجرم لم يقترفه؛ ذلك أنه تحمل وزر المجرم الحقيقي وهو شاب جميل جدا من أصل إيطالي، كان يحبه فوتران كثيرا.

فسألته الآنسة ميشونون:

– ولكن ما دام السيد الوزير متأكدا من أن فوتران هو بعينه قاهر الموت، فلماذا يريدنا على معاونته؟

– إنه ليس متأكدا بمعنى الكلمة، وإنما هناك قرائن قوية على أن هذا الشخص هو «جاك كولان» الملقب بقاهر الموت، وأنه موضع ثقة ثلاثة مناسر من اللصوص، يقوم لهم بدور الوسيط في تصريف المسروقات، نظير عمولة كبيرة، ويحتفظ لهم بأموالهم، ويستغلها ويستثمرها لهم، وينفق منها على أسرهم إذا سجنوا، فإذا أطلق سراحهم أو هربوا من السجن رد إليهم ما لهم.. فمن الأهمية لدى الدولة بمكان أن تستطيع إلقاء القبض على هذا الشخص، والاستيلاء على المال الموجود تحت يده، والذي يقدره العارفون بمبلغ طائل.. فإذا ساعدتما الدولة في هذا السبيل، لم تضن عليكما بالمكافأة الجزيلة. فيمكن

أن يعود السيد بواريه إلى الخدمة، سكرتيرا لمفتش من مفتشي البوليس مثلا، ولا يحول ذلك دون استمراره في قبض المعاش عن خدمته السابقة.. أما الآنسة فستكون مكافأتها ذات بال

فسألته الآنسة ميشونون:

– ولكن لماذا لا يأخذ فوتران لنفسه هذا المال ويهرب به!

– لأنه إذا هرب فسيتبعه المجرمون الموتورون أينما حل لينتقموا منه. ثم أن فوتران يعتبر هذا العمل غدرا لا يليق بشرفه.

– .... ولماذا لا تقبض عليه الحكومة بدون وساطتنا؟

– لأن فوتران يبدو رجلا شريفا في الظاهر، فإذا لم تكن الحكومة متأكدة تأكدا قاطعا، كان إقدامها على إزعاج رجل شريف وثري عملا غير مأمون العواقب، لأن له أصدقاء في أعلى الأوساط.. والسيد الوزير لا يريد التعرض لسخط الرأي العام وكبار رجال الأعمال من أصدقاء فوتران بدون موجب. ثم أن مدير البوليس قد يتعرض لفقد مركزه إذا وقع في مثل هذا الخطأ

فعادت ميشوتون تقول:

– ولكني أظنكم بحاجة إلى امرأة جميلة للوصول إلى سره..

– قاهر الموت لا يهتم بالنساء ولا يحبهن..

– ففيم تريد معاونتي لك إذن؟

– المسألة في منتهى البساطة: سأعطيك حنجورا صغيرا فيه مخدر قوي، إذا صببته في كأس فوتران أو في قهوته فقد وعيه في الحال. وليس أيسر في هذه الحالة من نقله إلى فراشه وخلع ملابسه بحجة إفاقته، فتسنح لك الفرصة للتحقق من وجود «طابع الليمان» المدموغ به كتف المجرم الهارب..

– ولكن إذا لم أجد هذا الطابع، هل تعطونني مكافأتي، وهي كما تقول ألفان من الفرنكات...

– طبعا لا.. خمسمائة فقط في هذه الحالة..

– هذا مبلغ لا يساوي الخطيئة. إن الوزر واحد في الحالتين، فلماذا لا يكون الثمن واحدا؟ اسمع! اجعل المكافأة ثلاثة آلاف فرنك إذا صح أنه المجرم الهارب، ولا شيء إذا اتضح أنه ليس هو...

– وهو كذلك! ولكن على أن تتم العملية غدا...

– ليس بهذه السرعة، فلا بد لي من استشارة القس

– إذن نتقابل غدا لأعرف أتوافقين أم لا بصفة نهائية

– هو ذاك...

لهووشجو

ولما ضاق الفتى إيجين بصدود دلفين في اليوم التالي لم يستطع مقاومة ما في مشروع فوتران من إغراء، فانزلق في التودد الخادع لفيكتورين دي تايفير، وصدقت الفتاة المتلهفة إلى العطف والحب ما تظاهر لها به، فخيل إليها أن السماء قد فتحت لها أبوابها وأصبح خان فوكير في نظرها وكأنما قد زانته أبهى الألوان والطنافس التي تزدان بها أفخم القصور.

وأنقذ الفتى من سورة الندم على هذا الفعل دخول فوتران في هذه اللحظة، فقرأ بنظرته النافذة ما بين الشابين، فولت فيكتورين هاربة لا ذعرا ولكن خجلا من هذه السعادة التي لم تتمتع بمثلها في حياتها من قبل، وقال فوتران لإيجين على الأثر:

– أن المسألة في طريق الحل النهائي: فقد وقعت الفرقة والمشادة بين صاحبي والشاب تايفير، واستدرج الشاب الساذج حتى تورط في توجيه الإهانة إلى صديقي، وغدا في منتصف التاسعة صباحا سيلتقي الغريمان، وستصبح الآنسة تايفير الوريثة الوحيدة للقلب والدها وثروته في الوقت الذي تكون منصرفة فيه هنا إلى غمس قطع الخبز في فنجان القهوة على مائدة الإفطار. أليس هذا طريفا حقا؟ وقد بلغني أن الشاب تايفير بارع في ألعاب السيف، ولكنه لا يعرف ضربة خاصة ابتدعتها أنا ويعرفها صديقي، يطير بها السيف من يد الخصم ويصاب في جبهته بضربة قاضية. وفي نيتي

أن أعلمك هذه الضربة يوما ما، لأنها نافعة للغاية.

وكان إيجين يصغي إلى هذا الكلام مبهوتا ولا يجيب. وفي هذه اللحظة دخل الأب جوريو وبيان شون طالب الطب ونفر من النزلاء الآخرين. وخطر لراستنياك أن يذهب في المساء ليحيط المسيو دي تايفير الشيخ وولده بحقيقة المؤامرة، ولكن الأب جوريومال في هذه اللحظة على أذنه وقال له:

– أراك مكتئبا يا ولدي، لهذا سأدخل السرور على نفسك، تعال معي!

فقام الشاب وتبعه وقد استبد به حب الاستطلاع، وقال له الشيخ:

– لندخل إلى حجرتك. لعلك قد ظننت هذا الصباح أنها لا تحبك لكثرة ما تدللت عليك؟ فقد بلغني أنها صرفتك وأنت غاضب يائس. أعلم إذن أنها صرفتك في هذا الوقت لأنها كانت تنتظرني أنا، لأننا كنا على موعد لنتم إعداد مسكن أنيق خفيف الظل تتلاقيان فيه على هواكما بعد ثلاثة أيام. وهي تريد أن تجعل هذا الأمر مفاجأة لك، فلا تظهر لها معرفتك به لأنني أنا أطلعتك عليه لما رأيت حزنك، فأنت عندي أثير.. وقد انتقينا الأثاث معا، وكانت تتحرى أن يكون بهيجا كجهاز العريس، وقد استغرق هذا الإعداد أوقاتنا منذ شهر، وقد رتبت لك الأمر مع المحامي كي يصل إلى يد ابنتي ريع بائنتها وهو ستة وثلاثون ألف فرنك في السنة!

وكان إيجين يصفر وهو يتمشى في الغرفة صامتا وذراعاه معقودتان

فوق صدره. فانتهز الشيخ فرصة أدار فيها الشاب له ظهره وهو يتمشى، فوضع على رف المدفأة صندوقا صغيرا من الجلد المراكشي الأحمر مطبوع عليه بالذهب شعار أسرة راستنياك، وقال للفتى:

– يا ولدي! لقد سعيت لهذا الأمر جهد طاقتي، ولكنني كنت في الواقع مدفوعا بالأنانية، فهل تعدني ألا ترفض لي طلبا سأتقدم به إليك؟

– وما هو؟

– فوق المسكن، مسكنكما الجديد، في الطابق الخامس، حجرة تابعة لمسكنكما، فهل في الإمكان أن أقيم فيها؟ فقد كبرت سني ولم أعد أطيق كل هذا البعد عن بنتي، وثق أنني سوق لا أضايقكما، فيكفيني أن أراها وأن تحدثني أنت كل ليلة عنها! والحي بعد سيكون أقرب كثيرا إلى الشانزيليزيه التي أرتادها لأرى بنتي أثناء نزهتهما.. إن دلفين قد عادت إليها سعادة الطفولة منذ هذا الشهر، فهي مدينة لك بطعم السعادة، ولهذا تجدني مستعدا أن أفعل المستحيل من أجلك.

ومسح الرجل الطيب عينيه فقد كان يبكي.

– ... وقد أسعدني اليوم الحظ بنعمة حرمت منها منذ عشر سنين، فقد طفت بالحوانيت وابنتي متعلقة بذراعي. ألا ما أحلى أن يشعر الإنسان بمس ثوبها وهي تمشي يداعب ذراعه... فاحتفظ بي في جوارك، فقد تحتاج إلى شيء، فأقضه لك أنا، حتى إذا مات هذا الزوج الألزاسي الثقيل تمت السعادة لابنتي بالزواج منك.. وقد قلت لها أنك أعطيتني الألف فرنكا،

فتأثرت كثيرا وأعطتني شيئا أوصله إليك. أُنظر ما هذا الذي فوق مدفأتك؟

فلما فتح الفتى الصندوق وجد فه رقعة تحتها ساعة ثمينة، وفي الرقعة هذه الكلمات:

«أريد أن نفكر في كل ساعة، لأنني... دلفين»

فتأثر الشاب حتى لقد دمعت عيناه، وقال له الأب جوريو:

– اذهب لزيارتها هذا المساء، فإنها تنتظرك، فالألزاسي سيتعشى الليلة عند صاحبته الراقصة، فهل تقبل عيشي معك؟

– أجل يا أبي، فأنت تعلم جيدا أنني أحبك

– أعلم هذا، فأنت لا تخجل مني

واحتضن الشاب بحرارة ثم قال له:

– تعهد لي أن تسعدها! إنك ذاهب الليلة.. أليس كذلك؟

– أجل، ولكني سأقضي قبلها أمورا لا تحتمل الإرجاء

– وهل في وسعي أن أقضي لك شيئا منها؟

– تذكرت! في الوقت الذي أكون فيه عند دلفين، تذهب أنت للقاء السيد تايفير الكبير لتطلب إليه موعدا يقابلني فيه أثناء السهرة لشأن ذي

فصاح الأب جوريو في حدة وقد تغير وجهه:

– أصحيح إذن أيها الشاب أنك تغازل ابنته كما يزعم هؤلاء الأوباش؟ يا إله السماء! إنك لا تعلم يا ولدي مدى ما يصل إليه جوريو إذا غضب. فأعلم أنك إذا خدعتنا تعرضت لضربة قاضية... ولكن هذا مستحيل!

– أقسم لك أنني لا أحب إلا امرأة واحدة في العالم

– وافرحتاه!

– كل ما في الموضوع أن تايفير الصغير سيبارز بعض الناس غدا، وقد سمعت أنه سيقتل

– وما شأنك بهذا؟

– يجب أن نخبره ليمنع ابنه من الذهاب...

وفي هذه اللحظة سمع عند عتبة الباب صوت فوتران العريض يتغنى بأغنية شعبية، ثم حضر الخادم كريستوف وصاح:

– أعدت المائدة والجميع في انتظاركما

وصاح فوتران بمرح:

– هيا تناولا معي زجاجة من نبيذ بوردو

أما جوريو فكان منصرفا إلى سؤال إيجين عن الساعة وهل أعجبته، ثم استطرد إلى إطراء ذوق ابنته الجميل!

وهكذا هبط فوتران والأب جوريو وراستنياك معا، وجلسوا إلى المائدة متجاورين بحكم تأخرهم في النزول.

ملأ الكئوس

كان تأثير هذا اليقين الذي طرأ على قلب إيجين من جهة دلفين قاضيا على إغراء فوتران. لهذا أظهر له الفتى أثناء الطعام نفورا، مع أن فوتران كان في تلك الساعة في قمة المرح والظرف، ينثر الدعابات يمينا ويسارا، حتى أن مدام فوكير سألته في دهشة:

– ماذا جرى اليوم حتى يستخفك المرح إلى هذا الحد؟.

– إني دائما مرح، حين أوفق في صفقة رابحة..

فسأله إيجين متهكما: صفقة؟

– أجل... فقد سلمت اليوم بضاعة طيبة سأنال عليها عمولة ضخمة!

فصاحت مدام فوكير:

– مادام الأمر كذلك، فلا تضيع الوقت في الكلام، وهات نبيذك الموعود فقال فوتران في مجون ممزوج بالجد المموه:

– أيها السادة! إن حضرة الرئيسة قد نبهتنا إلى جدول الأعمال! يا كريستوف.. هات النبيذ

– هاكه يا سيدي!..

فصب في كأسي إيجين وجوريو من النبيذ ما ملأهما، ثم وضع في كأسه بضع نقط امتصها في بطء، ثم عبس وصاح:

– هذا ليس من أعلى طبقة. خذ هذه الزجاجة لك ياكريستوف، وهات أخرى، مما في الجهة اليمني.. نحن هنا ستة عشر، فأنزل ثماني قنينات

وما هي إلا دقائق، حتى دارت على الشاربين كئوس الطلى مترعات، وبدأت حرارتها تسري في العروق وتصعد إلى الرؤوس.. ودوت الضحكات العالية المنطلقة من كل تحفظ، وتطايرت النكات والقفشات، وبات الكل يتحدثون في وقت واحد، حتى صارت الضجة شيئا فظيعا لا يمكن أن يحتملها إلا المخمورون. فالكل يهزلون ويهذرون، وفوتران يرشقهم باسما بنظراته الهادئة، ولا سيما إيجين وجوريو اللذين أسندا رأسيهما إلى ظهر المقعد، وقد بدا عليهما إعياء السكر. والواقع أن كلا منهما كان مشغول البال بما سيصنع في ليلته، ولكنه يشعر أنه غير قادر على القيام من مجلسه. حتى إذا استبد بهما خدر الخمر، ومالت عيناهما إلى الغمض، مال فوتران على أذن إيجين وهمس له ساخرا:

– يا عزيزي الصغير، لسنا أندادا للأب فوتران في المكر، حتى نشتبك معه في صراع غير متكافئ.. ثم هو يحبك كثيرا بحيث لا يدع لك فرصة الإقدام على حماقة.. مثل تحذير تايفير مما ينتظره غدا! نم يا حبيبي نم! وفي الوقت الذي تأخذك فيه هذه السنة من النوم، يقوم صاحبي بشق

طريقك إلى ميراث تايفير بحد سيفه الصمصام.. فموت أخيها سينقل إليها ميراثا صغيرا يبلغ دخله خمسة عشر ألف فرنكا في السنة.

وكان إيجين المسكين يسمع كل حرف، ولكنه لا يستطيع حراكا ولا نطقا، وكأن ضبابا كثيفا قد ضرب أمام عينيه، ثم خبت حواسه وراح في غيبوبة، في حين انصرف بقية النزلاء، كل منهم في حجرته مشغولا بحالة «السرور» التي سببتها له الخمر، عدا إيجين وجوريو والسيدات. وعندئذ صاح فوتران:

– لقد سكر هذان!.. ما أروع صورتهما معا!

ثم جعل يهزهما فلا يستفيقان، فأسند رأسيهما إلى المائدة ليناما أكثر راحة، ثم قبل جبين إيجين وهو يغني:

«نم يا حبيبي نم.. «فأنا ها هنا ساهر!»

فقالت فيكتورين بقلق:

– أخشى أن يكون مريضا..

– ابقي إذن للسهر عليه والعناية به!

ثم مال على أذنها وهمس لها:

– هذا واجب المرأة المخلصة المطيعة.. فهذا الشاب يعبدك عبادة!

ثم انطلق فوتران خارجا ليحضر مركبة يصحب فيها صاحبة الخان إلى ملعب من ملاعب التمثيل كما وعدها من قبل.. فمال جسم جوريو حتى كاد يسقط على الأرض، فاشمأزت مدام فوكير وصاحت مستنكرة:

– ما أسخف أن يفقد رجل في مثل سنه صوابه بفعل الخمر. هذا لا يليق. رباه! إن الرجل سيقع، فاحمليه يا سيلفي إلى فراشه

فوضعت سيلفي يدها حول خاصرة الشيخ وجرته جرا فألقته بملابسه بعرض السرير! ثم هبطت مسرعة لتلبي نداء سيدتها التي كانت تصيح بها أن تسرع كي تعاونها في لبس مشدها الكبير كي تبدو في أحسن حالاتها وأرشقها في صحبة العملاق الذي تميل إليه لقوته ومجونه وسخائه.. أما مدام كوتير وفيكتورين فانشغلتا بالفتى أيجين، تسندان رأسه الذي كان يترنح فكان يصطدم بالمائدة أو ذراع الكرسي. وهمت أن تأخذه مدام كوتير على كتفها، ولكن رأسه مالت إلى كتف فيكتورين التي كانت بادية القلق عليه، حتى لقد تحرك قلب مدام كوتير فراحت تربت على خدها في حنان.. فقالت لها الفتاة وهي تتخلل بأصابعها شعر الفتى:

– إنه مع هذا لم يزد على كأسين يا أماه..

– لو كان من مدمني الشراب لتحمل سورة النبيذ كما تحملها الآخرون.. فسكره شاهد على براءته..

ودخل فوتران في هذه اللحظة قادما بالعربة التي ستقله مع صاحبة الخان إلى المسرح، فما رأى هذه اللوحة التي تسكنها الفتاة والفتى، حتى عقد ذراعيه

فوق صدره وصاح:

– سبحانك ربي! هذا لعمري مشهد خليق أن يلهم أجمل الصفحات لهذا الكاتب برناردان دي سان بيير، مؤلف بول وفرجيني! إن الشباب جميل يا مدام كوتير! انظري: أما ترين ملكا ينام على كتف ملك؟ إني لأغبطك يا فيكتورين، فلو كنت امرأة لتمنيت أن تتاح لي الحياة من أجله فحسب

ولم تلبث مدام فوكير أن هبطت الدرج في زينة ظاهر فيها الجهد والتحمل، وقد توهج وجهها لشدة ضغط المشد الكبير على خصرها الضخم، وانصرفت تتأبط ذراع فوتران. ولم يبد على إيجين ما يدل على قرب إفاقته، فحملته مدام كوتير وفيكتورين بمعونة سيلفي إلى حجرته، فأرقدته على فراشه، وخلعت سيلفي عنه ملابسه، وغطته بعناية. فلما همت النسوة الثلاث بمغادرة الغرفة، اختلست فيكتورين من وراء ظهر مدام كوتير قبلة من وجنة الشاب المخمور. ثم شملت الحجرة بنظرة مستوعبة خاطفة، حتى تحتفظ في قرارة نفسها بصورة المكان الذي يعيش فيه فاتنها

وفي هذه الليلة لم تنم في باريس فتاة وهي أسعد من فيكتورين دي تايفير..

فات الأوان

وكان اليوم التالي من أبرز الأيام في تاريخ بنسيون فوكير؛ فقبل هذا اليوم لم يحدث في هذا الخان حادث يغير من رتابة الحياة فيه خلا ظهور الكونتس المزيفة، ولكن هذا الحادث القديم سيطويه خمول الذكر بالمقياس إلى ما هو مزمع أن يحدث اليوم

وأول الظواهر الغريبة في هذا اليوم استغراق الشاب إيجين والشيخ جوريو في النوم حتى الساعة الحادية عشرة، وأن مدام فوكير التي عادت من ملعب التمثيل بعد انتصاف الليل ظلت في فراشها إلى ما بعد العاشرة، وحتى الخادم كريستوف نام إلى الضحى لأول مرة في حياته لأنه شرب كل ما تبقى من نبيذ فوتران فلم يقدم الإفطار إلا بعد موعده بكثير. وفوتران وحده هو الذي استيقظ مبكرا فخرج قبل الثامنة ثم دخل والمائدة معدة. ولكن الآنسة ميشونون كانت أول من هبط إلى القاعة وبقيت فيها وحده ريثما يطوف الخادم والطباخة بحجرات النزلاء لإيقاظهم من نومهم الطويل. وانتهزت ميشونون هذه الفرصة فصبت في وعاء اللبن الفضي الخاص بقهوة فوتران ذلك الحنجور الذي زودها به جوندورو، ثم بدأ تقاطر النزلاء على القاعة، وكان آخرهم إيجين الذي وجد في انتظاره رسولا من قبل البارونة دلفين دي نوسنجين يحمل إليه منها خطابا هذا نصه:

«لست أحب الكبرياء الكاذبة، فلا أنكر عليك أنني انتظرتك إلى

الساعة الثانية بعد منتصف الليل كما تنتظر المرأة الرجل الذي تحبه! ولعمري إن الإنسان الذي جرب مرة في حياته هذا العذاب الأليم لا يطاوعه قلبه على إذاقته لأحد، وقد استنتجت من هذا أنك لم تحب من قبل. فماذا وقع لك فعوقك عن الحضور؟ إن القلق عليك ينهش قلبي، ولولا خشيتي من إثارة قالة السوء لكان حضوري للاطمئنان عليك بالأمس أقرب شيء إلى الوقوع. ففسر لي تخلفك عن الحضور. هل تشكو مرضا؟ أتوسل إليك أن تسعفني بكلمة منك تشفي غليلي وتؤكد لي عزمك على الحضور في أسرع وقت مستطاع».

فلما فرغ الفتى من تلاوة الخطاب جعل يصيح وهو يقتحم قاعة المائدة:

– ماذا حدث لي؟ كم الساعة الآن؟

فأجابه فوتران وهو يضع السكر في قهوته:

– منتصف الثانية عشرة ثم رشق الفتى بنظرة فاحصة هادئة، فوجم الفتى وإن كانت أوصاله ترتعد غضبا. وفي هذه اللحظة سمع أمام الباب صوت عربة مسرعة وقفت فجأة وهبط منها حاجب من حجاب السيد نايفير عرفته مدام كوتير لأول وهلة، وكان بادي الرعب، فصاح بالآنسة فيكتورين:

– يا آنسة، والدك يطلب حضورك حالا. لقد حل بنا خطب هائل؛ فقد اشتبك السيد فريدريك شقيقك في مبارزة وأصابته ضربة سيف في

جبهته وأعلن الأطباء يأسهم من نجاته، ونسأل الله أن تكون هناك فرصة لتودعيه الوداع الأخير؛ فإنه قد فقد الوعي ودخل في طور النزع.

فهتف فوتران:

– يا للشاب المسكين! ولكنه كان في غاية الحمق إذ اشتبك في هذه المبارزة. فهل يتشاجر المرء ولديه ثلاثون ألف فرنك دخلا سنويا صافيا؟

فصاح في وجهه إيجين:

– سيدي!

فأجابه فوتران وهو يحسو قهوته بهدوء – الآنسة ميشونون ترمق احتساءه لها بعين لا تغفل:

– ماذا تريد يا يني أن تقول؟ أتريد أن تقول أنه لا تحدث في كل يوم مبارزات شتى في مدينة باريس؟

وقالت مدام كوتير:

– سآتي معك يا فيكتورين

وأسرعت المرأتان كما هما إلى العربة. وقالت مدام فوكير:

– إن هذا لغريب! فالموت يخبط خبط عشواء الليل، فيهتبل الصغار قبل الكبار وإنه لمن حسن طالعنا نحن النساء إلا نتعرض للمبارزات. وإن

كنا نتعرض لآلام أخرى لا يتعرض لها الرجل مثل مخاض الولادة. ولكن هذه المصيبة ستفيد منها فيكتورين فائدة كبرى، سيضطر والدها لاحتضانها

والتفت فوتران إلى إيجين وقال له:

– إن التي كانت بالأمس معدمة ها هي قد أصبحت اليوم من ربات الملايين وقالت له مدام فوكير:

– لعمري يا سيد إيجين لقد وضعت يدك على كنز فريد!

فنبهت هذه العبارات الأب جوريو فنظر إلى الفتى باستغراب، فأسرع إيجين يقول لمدام فوكير في تقزز ظاهر أثار دهشة الحاضرين:

– إنني يا سيدي لن أتزوج الآنسة فيكتورين

وقال حاجب دلفين:

– إنني في انتظار الجواب يا سيدي

– قل أنني حاضر

وانصرف الحاجب وإيجين لا يزال في حالة عصبية في غاية العنف فهو يحدث نفسه ويلوح بيديه، ثم هز كتفيه أخيرا وقال بصوت مسموع:

– ولكن ماذا أصنع؟ ليس تحت يدي أي إثبات

فابتسم فوتران ولكن ابتسامته لم تطل، فقد سقط على الأرض بلا

حراك، فصاح إيجين:

– حقا إن في السماء لعدلا إليها!

وصاحت صاحبة الخان مذعورة:

– ما الذي جرى للسيد فوتران؟

فأجابتها ميشونون:

– نوبة صرع ليس غير...

وأسرعت سيلفي لتدعو طبيبا، وأسرع إيجين لينادي بيان شون طالب الطب. وتعاون كريستوف ومدام فوكير وبواريه وميشونون على حمله والصعود به إلى غرفته. أما جوريو فلم يشترك معهم بل انصرف غير عابئ ليرى ابنته. وطلبت ميشونون إلى مدام فوكير أن تحضر لها زجاجة أيثير، فخلا لها الميدان فنزعت قميص الرجل وضربته على كتفه فظهر طابع الليمان أبيض اللون في وسط الموضع المحمر من أثر الضربة، فصاحت هي وبواريه فرحا بالثلاثة آلاف فرنك، وهي المكافأة الموعودة. وفي هذه اللحظة سمع صوت مدام فوكير قادمة تلهث وفي يدها زجاجة الإيثير، وهي لا تملك نفسها من الجزع على العملاق المريض...

نهاية عملاق

ذهب إيجين ليتنزه في الحديثة العامة في محاولة للاستجمام ولململة شتات أعصابه ويراجع نفسه فيما هو مقبل عليه، فعاد إلى ذاكرته حديث الأمس الذي دار بينه وبين جوريو، عن ذلك المسكن العصري الأنيق الذي أعد له ليكون عش غرام يستقبل فيه دلفين، ويعيش فيه بدلا من النزول في هذا الخان الحقير. وأخرج خطابها فجعل يتلوه مرة أخرى ثم قال لنفسه:

– إن حبا كهذا هو طوق النجاة لغريق مثلي، ولن أتخلى عن الأب جوريو، فهذا الرجل يتألم في صمت، فسأكون له بمثابة الابن البار. وسيسعد الشيخ لأن ابنته مادامت تحبني فستأتي ولا ريب لتمضية سحابة النهار في جواري فيتسنى له أن يراها. أجل إن دلفين طيبة القلب، على خلاف هذه المتعجرفة استازي دي ريستو. فما أسعدني بحبها، وإن أحلامي بالوصال ستتحقق ابتداء من هذه الليلة.

ثم جعل ينظر في الساعة التي أهدتها إليه وقال:

– لقد تحققت جميع آمالي، ولا ضير أن أقبل منها الهدايا والمعونة ما دام الحب قد جعل منا شخصا واحدا، وطبعا سأرد إليها هذا كله مضاعفا مائة مرة حينما أصل إلى مقاليد الثروة. ولا جناح علينا أن نتحاب، فهي في حكم الطليقة لأنها قطعت علاقتها بزوجها من زمن طويل وأوصدت دونه

باب مخدعها. وعما قريب سيصبر في إمكاني أن أواجه هذا الألزاسي وأقول له: دع لي امرأة لم يعد في طاقتك أن تسعدها!

وهكذا أقنع الفتي نفسه بأن ما هو مقدم عليه حل له، وأن ما تورط فيه لا يلحقه منه وزر، فلما انتصفت الساعة الخامسة عاد إلى النزل الذي سيغادره بعد يومين إلى غير رجعة كي يعرف هل مات فوتران أم نجا. فوجده حين دخل واقفا على قدميه أمام المدفأة في قاعة المائدة التي تجمع كل النزلاء عدا جوريو، متلهفين على تفاصيل التغير الهائل الذي طرأ على حياة فيكتورين. فكلما دخل إيجين التقت نظراته بنظرات فوتران الذي ابتسم وقال للفتى وكأنه يقرأ أفكاره:

– لقد نجوت من الموت بأعجوبة، فهل تراك آسف لنجاتي؟

وفي هذه اللحظة سمعت ضجة يحدثها بضعة رجال وخطوات عسكرية، ثم ظهر أربعة رجال أولهم رئيس إدارة المباحث ومعه ثلاثة ضباط صاح أحدهم بين دهشة الحاضرين:

– باسم القانون وباسم الملك!

وساد الصمت قاعة المائدة ثم تقدم الضباط الثلاثة وأيديهم على مسدساتهم إلى وسط القاعة في حين انتشرت ثلة من الجند حول جميع الأبواب والنوافذ، وتقدم رئيس المباحث نحو فوتران فانتزع من فوق رأسه طاقية الشعر المستعار، فبدت رأسه ضخمة عاطلة إلا من شعرات حمراء. وصعد الدم إلى وجهه ولمعت عيناه ببريق كبريق القط المتوحش ووثب من مكانه وثبة أطلقت صيحات الرعب من جميع الحاضرين، فشهر الجنود والضباط عليه مسدساتهم وبنادقهم، فأدرك أنه قد استحال عليه الفرار وأن المقاومة لا طائل تحتها،

فابتسم وأشار إلى طاقية شعرة المنزوعة وقال لرئيس المباحث:

– أراك لست اليوم في أدبك المعهود!

ثم مد كلتا يديه إلى الجنود وأومأ إليهم برأسه أن يقتربوا

– ضعوا فيهما الأغلال، وأنا أشهد الحاضرين جميعا على أنني لن أبدي أي مقاومة

فصاح رئيس المباحث:

– اخلعوا عنه ملابسه

– ولماذا؟ ففي القاعة سيدات ثم أنا معترف وأسلم نفسي.

وتمهل قليلا وهو يدير في الحاضرين نظراته كما يفعل الخطيب حين يهم بالكلام

– سجلوا أنني أقر بأني جاك كولان المشهور باسم قاهر الموت، والمحكوم عليه بعشرين سنة مع الشغل

وعاد يتفحص وجوه الحاضرين ثم استطرد:

– من الذي وشى بي؟

واستقر بصره على الآنسة ميشونون

– ... إنه أنت أيتها العجوز الدردبيس! أنت التي دسست لي هذا

المخدر، وفي استطاعتي أن أجعل انتقامي يلحقك وأنا أدخل السجن في ظرف أسبوع واحد. ولكني أعفو عنك، فأنا رجل غفور متسامح

وفي هذه اللحظة كان الجنود قد فرغوا من تفتيش حجرته وجاءوا يهمسون في أذن رئيس المباحث بكلام فجعل فوتران بقلب ناظر به في وجوه جيرانه السابقين ويشكر لهم عشرتهم الطيبة ثم خطا خطوة نحو الباب مع حراسه والتفت إلى إيجين دي راستنياك فقال له بصوت رقيق يفيض أسى:

– وداعا يا إيجين ولكنني لم أتخل عنك نهائيا، فإذا حزبك أمر فهناك صديق يركن إليه أو صيته بك، وسيفه وماله تحت أمرك..

واستطاع رغم القيود التي تكبل يديه أن يقلد حركات معلم السيف، ففهم إيجين وحده من الذي يعنيه فوتران، فهو صديقه ضابط الحرس الذي بارز شقيق فيكتورين وقتله.

وغادر فوتران مع الجنود خان فوكير إلى غياهب الليمان، وأقبلت سيلفي الطباخة ترطب عارضي سيدتها بالخل والكحول عساها تفيق من الإغماء الذي أصيبت به. وهزت الطباخة السمينة كتفيها في أسى وقالت متحسرة:

– ومع هذا فقد كان رجلا أي رجل...

عش الغرام

يوم حافل!

فتاة تنقلب من الفقر المدقع إلى الثراء الطائل في طرفة عين، ورجل عملاق يصاب بالإغماء، ثم ينكشف المستور، فإذا هو مجرم هارب من الليمان، وهو مع هذا يحب الفتى إيجين لغير سبب ظاهر، ويترك له عند صاحبه توصية بإعطائه كل ما يطلب من مال، وتقديم كل ما يحتاج إليه من معونة، ولو اقتضى الأمر أن تزهق روح!

والفتى المبهوت سيستيقظ قرب الظهر ليجد خطاب عتاب ومناجاة غرام، وليعلم أن السعادة تنتظره إذا جن الليل، وكان قد حسب التعلق بوصل دلفين تعلقا بالمحال. فلا غرو أن نراه مشغولا بهذه الأحداث وما تركته في نفسه، وهو مستقل العربة إلى جوار الأب جوريو، في طريقهما إلى لقاء دلفين في «عش الغرام» الجديد

وكان الشيخ ظاهر السرور، كأن أحداث اليوم لم تنل منه:

– لقد انتهى عهد الشقاء، وسنتعشى الليلة ثلاثتنا معا. معا! أتدري ما معنى هذا؟ معا! لقد انقضت أربع سنوات منذ تعشيت آخر مرة مع عزيزتي دلفين. أما الليلة فستكون لي طول السهرة! وقد كنا معا منذ الظهر في بيتك الجديد، لإتمام الاستعداد لاستقبالك فيه. تالله لقد كنت سعيدا

وأنا أعمل كالفعلة الأجراء في نقل الأثاث وتنظيفه. والليلة سأقبض ثمن هذا التعب، فأنت لا تدري مدى طيبة قلب دلفين «خذ هذه يا بابا. فهي قطعة طرية وطعمها لذيذ!». اليوم يا صاحبي يوم فاصل

– أجل يا أبي العزيز، فقد زلزلت الأرض اليوم زلزالها!

– زلزلت زلزالها؟! كيف؟ فلست أرى في الشوارع إلا وجوها زهاها البشر، كأن كل واحد منهم سيسعد مثلي بالعشاء مع ابنته. إنه عشاء لطيف يا ولدي العزيز، سمعتها بأذني تطلب أصنافه من طباخ المقهى الإنجليزي.. مع أن الصاب والعلقم يكون لهما طعم العسل في فم من يشاطرها الطعام... ماذا دهاك أيها الحوذي؟ ما هذا الإبطاء؟ أسرع يا هذا. وسأعطيك خمسة فرنكات زيادة على أجرتك إذا بلغت بنا مقصدنا قبل عشر دقائق!

فما سمع الحوذي هذا القول حتى جعل يمرق في شوارع باريس مثل السهم المريش. ولكن الأب جوريو جعل يتقلب في مقعده ويقول:

– تبا لهذا الحوذي! إنه لا يتحرك من موضعه!

ووقفت العربة أخيرا في شارع «دارتوا»، فنزل الشيخ والشاب وصعدا سلم بيت من داخل رحبة، وطرقا باب مسكن يطل على الجهة الخلفية من البناء، فلا يرى السابلة في الطريق العام من يعيش فيه أو يطل من نافذته. ولم تكن بالأب جوريو حاجة إلى طرق الباب، لأن الوصيفة «تيريز» كانت أسرع إلى فتحه. فألفى إيجين نفسه في مسكن أنيق فاخر.

تطل حجراته الثلاثة على الحديقة الخلفية. وفي الصالون الفخم الرشيق رأى على ضوء الشموع دلفين دي نوسنجين تنهض من مجلسها بجوار المدفأة، فاحتواها بين ذراعيه وضمها إلى صدره بحرارة، وقد دمعت عيناه من الفرح. ومسح الأب جوريو عينيه وقال لابنته:

– أنا خبير بالقلوب؛ لهذا كنت واثقا أنه يحبك أعظم الحب

وصحبت دلفين إيجين فطافت به أرجاء الحجرات، حتى دخلت به حجرة أذكرته في تأثيثها وترتيبها حجرة دلفين الخاصة في بيتها، ولكنه قال مستغربا:

– ولكن ليس هنا سرير!

فقالت له وقد أحمر وجهها، وهي تضغط على يده بحرارة:

– أجل.. لا سرير..

فأدرك مقدار وخز الحياء الذي تشعر به، فأقبل عليها معانقا مقبلا:

– أنت فريدة بين النساء يا حبيبتي... وحبنا أيضًا فريد، لهذا يجب أن نصونه عن عيون جميع الناس

فصاح الأب جوريو:

– وأنا؟ هل أنا أيضًا ضمن هؤلاء الناس؟

– كلا يا أبانا... إنما أنت « نحن » .. ونحن أنت..

– هذا ما أريد.. لا تلقيا إلى بالا، وكأنني غير موجود. لا تتحرجا أمامي.. أرأيت يا دلفين كيف جاء اختياري سليما؟ إنك كنت غير مقتنعة، ولكني أصررت، وها أنت ذا تجنين ثمرة السعادة، وها أنا ذا منحتك الحب كما منحتك الحياة!

وصاح إيجين:

– ولكني رجل فقير، ولا أستطيع أن أقبل هذه الأشياء كلها، لأنها فوق طاقتي المادية..

فاستاءت دلفين وهتفت به:

– إن رفضك لا يحمل إلا معنى واحدا، هو أنك غير واثق من بقاء قلبك على محبتي دون أن يتحول يوما. أما إذا كنت تحبني، كما أحبك أنا، فلماذا تتردد؟ ولو عرفت مبلغ هناءتي بالإشراف على هذا البيت وتصريف شئونه، لما ترددت لحظة واحدة، ثم ما معنى ترددك في قبول هذه الأشياء التافهة، وأنت تطلب مني ما هو أغلى منها ولا شك؟.. فالذي يحب حقيقة ويطلب المنحة الكبرى ممن يحب، خليق أن يستهين بأي منحة أخرى بجانبها!..

– أقنعه يا أبي أنت.. حتى نستطيع أن نتعشى

– اسمع يا ولدي. إنك مازلت على أبواب الحياة، فأصغ إلي: هل

أمامك وسيلة لدفع ثمن هذا الأثاث غير الاستدانة من المرابين اليهود؟

– هذا هو الحل الوحيد..

– عظيم! ها أنت ذا قد وقعت في الفخ. أنا هذا اليهودي الذي ستقترض منه. لأنني أنا الذي دفعت أثمان كل شيء، وهذه هي «الفواتير» ومجموعها لا يتجاوز الخمسة آلاف فرنكا. فأنت مدين لي بهذا المبلغ الذي أقرضك إياه. ولا يمكن أن يكون لديك مانع من هذا لأنني لست امرأة حتى تستنكف أن تكون مدينا لي. ولا بأس أن تحرر لي سندا بالمبلغ في أي وقت..

فجال الدمع في عيون الفتى والفتاة وقد تبادلا نظرات الدهشة، وشد راستنياك على يد الشيخ الطيب وقد عجز عن الكلام، فقال جوريو ببساطة:

– ولم لا؟ ألستما طفلي العزيزين؟

فسألته ابنته وهي لا تزال مبهوتة:

– ولكن كيف استطعت يا أبي أن تسدد من وراء ظهري هذه الفواتير؟

– هاك: عندما رأيتك وقد استخفتك السعادة بتأسيس هذا المسكن كأنك عروس تشتري جهاز عرسها، قلت في نفسي ها هي ابنتي ستورط نفسها في عسر مالي سيكدر عليها سعادة حبها الناشئ. وقد قال لي

المحامي إن إجراءات استرداد بائنتك من زوجك يلزمه ستة أشهر على الأقل. فبعت جزءا من إيرادي السنوي وسددت أثمان هذه الأشياء. وقد بقي لي من الإيراد مائة فرنك شهريا تكفيني وتفيض عني، فإنني سأشعر كما لو كنت أميرا متوجا في غرفة السطح التي تعلو هذا البيت، ما دمت متمتعا برؤيتكما سعيدين.

فهجمت عليه ابنته واحتوته بين ذراعيها فأجلسها الشيخ على ركبته كما لو كانت طفلة صغيرة وحل يهدهدها ويداعب شعرها وخديها، ثم صاح بها:

– إني لم أشعر منذ عشر سنين بمثل هذه السعادة، فلا تزيديني منها وإلا قتلتني فإن قلبي يكاد ينشق من سرعة دقاته، دقات الفرح .

ثم احتضنها بشدة فصاحت:

– لقد أوجعتني!

– أوجعتك!

وشحب وجهه شحوبا شديدا وجعل يتأملها في فزع، فبهت إيجين لهذا الإخلاص الذي يصل إلى حد الهوس، ولكنه لم يخل من إعجاب شديد بهذا الحب النادر، وأقبلت دلفين على الشاب فتخللت شعره بأصابعها وقبلت جبينه. فقال لها أبوها:

– اعلمي أنه رفض من أجلك الزواج من الآنسة تايفير وريثة الملايين.

_ من أجلي؟

_ أجل يا إيجين، إن الفتاة كانت تحبك حبا حقيقيا، وها هي قد غدت بموت أخيها صاحبة ثروة خيالية فصاح به إيجين عاتبا:

– ما كان ينبغي أن تقول هذا الكلام

– عفوك! فهذا أسعد يوم مر بي منذ زواج ابنتي. والآن لا أبالي ما يجري علي به من قضاء الله، فقد قرت عيني برؤية عزيزتي دلفين في قمة السعادة.. ماذا؟ إنني قد تمتعت في هذه الساعة الواحدة بمقدار من السعادة لا يستطيع أن يشعر به جميع أهل الأرض في حياتهم طولها. والآن إلى الطعام!

وانقضى الطعام في فعال صبيانية، فقد كان الشيخ الذي ناهز السبعين أحدث سنا في هذه الليلة من الشابين العاشقين؛ فهو يرقد تحت أقدام ابنته حينا ليقبلها، وحينا آخر يحدق في عينيها برهة طويلة، أو يمرغ وجهه المتغضن المتهلل الأسارير في هدب ثوبها؛ فقد كان الرجل مخمورا دون أن تمس الخمر شفتيه، فهو يحب ابنته إلى حد السكر بطلعتها والتملي بحديثها وأخيرا قال الفتى:

– أرى أنه لا بد أن نفترق الليلة، فليس هنا مكان للمبيت

– غدا سيكون كل شيء قد تم لإقامتك. ولكن لا تنسى أنك ستتعشى معي في بيتي، لأن الليلة المقبلة من ليالي الأوبرا الإيطالية

وقال الأب جوريو:

– سأذهب أنا أيضًا، ولكن في الصالة مع عامة الناس، حتى أستطيع أن أتمتع برؤيتكما وأنتما تزينان المقصورة

– إلى غد إذن...

وكان الليل قد انتصف .

الدعوة المشتهاة

في ظهيرة اليوم التالي تلقى إيجين خطابا أنيقا عليه شعار آل بوسيان، وجد فيه دعوة موجهة إلى البارون والبارونة دي نوسنجين لحضور الحفلة الراقصة لكبرى التي تقيمها الفيكونتس دي بوسيان، ومع الدعوة رقعة بخط الفيكونتس: «لقد خطر لي أنك ستقبل عن طيب خاطر إبلاغ تحياتي إلى البارونة دي نوسنجين. وإني أرسل إليك مع هذا الخطاب الدعوة التي طلبتها مني، وأنه ليسرني أن أتعرف إلى شقيقة الكونتس دي ريستو، فأحضرها معك، وتقبل تحيتي»..

فلما تمعن الفتى في هذه السطور أدرك أن ابنة عمه لا تميل إلى حضور البارون حفلتها الراقصة فسر لهذا وأسرع إلى بيت دلفن لأنه يعلم أنها ستسر سرورا لا مزيد عليه بهذه الدعوة التي طالما اشتهتها ولم تكن تحلم أن تحصل عليها يوما ما، فوجدها في الحمام، فانتظرها في حجرة زينتها وهو يتحرق شوقا إلى استجلاء طلعتها، ووردت على خاطره صورته وقد أقبل من الريف منذ سنة ساذجا خاملا خجولا فقيرا منبوذا، فإذا هو اليوم أنيق له حظوة عند الحسان، وله عشيقة من أجمل وأبرز نساء المجتمع الباريسي..

ونبهته الوصيفة تيريز إلى خروج سيدتها من الحمام ووجودها في مخدعها، فخف إلى هناك ليجدها مستلقية على مقعدة طويل بجوار النار

وعليها غلالة من حرير موصلي، فبادرها بقوله:

– ما تظنين أنني أحمل إليك؟

وجلست إلى جوارها وتناول يده ليقبلها

وندت عن دلفين صيحة فرح طاغ حينما قرأت الدعوة، وحولت إلى إيجين عينين مخضلتين بالدمع وطوقت عنقه بذراعيها لتضمه إلى صدرها في نشوة عارمة من السرور الممزوج بالزهر

– إنني مدينة لك أنت بهذه الهناء. أجل إنني أسمي هذه الدعوة باسم الهناء، لأنها أكثر من نصر اجتماعي بمجيئها عن طريقك أيها الحبيب. فما من أحد رضي أن يقدمني إلى المجتمع الراقي أو البلاط حتى جئت أنت..

– ولكن ألم يبد لك أن الفيكونتس قد أظهرت في خطابها رغبتها في حضور البارون معك؟

– أجل هذا واضح، ولكن ما الضير؟ سأذهب وحدي معك. إن شقيقتي ستكون هناك، وقد نما إلي إنها تستعد لهذه الحفلة بثوب رائع. إنها تتظاهر بالمرح في هذه الحفلات في المدة الأخيرة لتخفى سرها الهائل؛ فقد استدان مكسيم دي تراي مائة ألف فرنكا، وفات وقت سدادها وتهددته الفضيحة، فأقدمت استازي على بيع مجوهراتها الثمينة، مجوهرات أسرة زوجها التي تتوارثها كونتس دي ريستو عن حماتها جيلا بعد جيل. ويقال أن زوجها قد اكتشف الأمر أو كاد. فأنا أتوقع في هذه الحفلة أن تكون

شقيقتي في أبهى زينة لتقطع ألسنة المتقولين وستجتهد على الخصوص في ذلك لأنني سأكون حاضرة وهي تحب دائما أن تتفوق علي. ولكني في هذه المرة سأتفوق عليها، ولو بنور السعادة الذي يشع من وجهي بحبك

وافترق العاشقان على موعد اللقاء الذي لا فراق بعده

وهكذا بات إيجين ليلته على ثقة من أنها ليلته الأخيرة في خان فوكير. فلما مر الفتى بباب جوريو حاول الشيخ أن يستوقفه، ولكن الفتى قال له وهو يمضي:

– غدا سأقص عليك كل شيء، أما الليلة فدعني أنام لأنني متعب، ولأن الانتقال إلى مسكننا الجديد سيحتاج إلى جهد جهيد.

دلفين عند أبيها

وفي اليوم التالي كان إيجين وجوريو على أتم أهبة لمغادرة الخان عند حضور حاجب من لدن البارونة يخبرهما أن الوقت قد حان. ولكن قرب الظهر سمعت في الشارع الهادئ ضجة عربة فارهة تقف أمام باب الخان مباشرة، ونزلت منها البارونة دي نوسنجين وسألت إذا كان أبوها لا يزال موجودا بالخان. فلما أجابتها سيلفي الطباخة بالإيجاب أخذت تصعد الدرج في خفة. وكان إيجين في حجرته والأب جوريو يظنه قد غادر الخان إلى المدرسة، ذلك أنه عاد ليتأكد من أنه لم يترك شيئا من خصوصياته في الحجرة لم يضعه في حقائبه. وسر كثيرا عندما وجد في درج النضد ذلك السند الذي كان قد كتبه فوتران واسترده منه إيجين في اليوم التالي. ولما كانت المدفأة خالية من النار في هذا الوقت فقد فكر في تمزيقه، عندما سمع صوت دلفن فأنصت ليتبينه اعتقادا منه أنه ليس لها أسرار تطويها عنه. ومن أول عبارة سمعها وجد الحديث شائقا بحيث استمر في الإصغاء إليه:

– الحمد لله يا أبي أنك طلبت رسميا في الوقت المناسب فصل ثروتي الخاصة عن ثروة نوسنجين قبل أن يلحقها الخراب

– ماذا حدث إذن حتى لم تطيقي صبرا بضع دقائق أخرى نكون بعدها معا في شارع دارتوا

– آه يا أبي! وهل تكون للإنسان سيطرة كاملة على أفعاله وحركاته حين تلم به كارثة من الكوارث؟ لقد طار صوابي، فقد أطلعنا محاميك على الكارثة قبل أن يذيع خبرها بين الكافة، فإن المحامي لما رأى زوجي يقيم من الاعتراضات والعقبات المفتعلة شيئا لا آخر له حتى لا يؤدي إليه بائنتي، هدده بقضية مستعجلة وبإقامة حارس قضائي. فدخل علي نوسنجين هذا الصباح وسألني هل أسعى إلى خرابه وإفلاسه سعي مجتهد؟ فأجبته أنني لا أعرف شيئا عن هذه الإجراءات، وأن كل ما أريده هو مالي الخاص الذي يجب أن يكون تحت يدي، وأن كل ما يتصل بأمر هذا المال موكول إلى المحامي. أليس هذا يا أبي ما أوصيتني أن أقوله؟

– أجل

– فشرع عندئذ يبسط أمامي موقفه المالي، فقد ألقى بجميع ما تحت يده من الأموال

– ومنها بائنتي طبعا في مشروعات ناشئة لم تأت منها أية ثمرة بعد. فإذا ألزم برد بائنتي في الوقت الحاضر اضطر إلى تقديم دفاتره وإعلان إفلاسه. في حين أنني إذا أمهلته عاما آخر فإنه يتعهد بشرفه أنه يرد إلى مالي ضعفين أو ثلاثة أضعاف. وقد لمست فيه يا أبي حرارة الصدق، وأقبل علي متوسلا مستغفرا عما سلف منه في حقي من سوء المعاملة، ورخص لي في الحياة على هواي، لا رقابة له على شأن من شؤوني أو مسلك من سلوكي، بشرط أن أدع له حرية التصرف في مالي باسمي. ووعدني أن يستدعي محامينا قبل كل عمل خطير تتأثر به ثروتي. وطلب كذلك أن يظل

ميزان الصرف على حاله فلا أنفق في الوقت الحاضر أكثر مما يسمح لي به، وبرهن لي على أنه بوضعه الراهن فوق قدرته ولكن ستر المظاهر ضروري. ومما دلني على صدق هذا الزعم أنه سرح الراقصة التي كان يحوزها. فلما شددت عليه النكير وكابرت في التسليم بصدقه، قدم لي دفاتره وأطلعني على الحقيقة المؤلمة، ثم بكى، وجعل يتكلم عن الانتحار وكأنه جن، فهو يهذي ويهرف حتى أخذتني به الشفقة.

– وهل انطلت عليك هذه الخزعبلات؟ إنه ممثل. سليني أنا فقد احتككت بالألمان في ميدان الأعمال، وهم في الغاب حسنو النية مستقيمون، ولكن إذا خطر لأحد منهم أن يستعمل الخبث تحت ستار الطيبة والصراحة، فإنه يغدو ثعلبا ذا دهاء. إن زوجك يستغل طيبة قلبك ويريد أن يستغل اسمك أيضًا كما استغل ثروتك في أعماله المهددة بالخراب. كلا! لن أرضى هذا لك، فما زلت خبيرا بالتجارة عارفا بأسرار الأعمال. إنه يزعم أنه ضع جميع الأموال في مشروعات ناشئة. فهو إذن يملك تحت يده أسهما واتفاقات في مقابل هذه الأموال. فليقدمها إذن وليحول إلينا نصيبك منها بحسب ما يخصك. وأعدك أن أختار أحسن هذه الأسهم وأكثرها ضمانا. أم هل يظن بنا الغفلة وقصور العقل؟ أم تراه يحسبني أصبر يومين لا عامين على تركك بلا مال وبلا سند في الحياة؟ هذا أمر لن أقبله أبدا، أم هل تراني أكدح أربعين سنة مديدة لكي ينتهي الحال بتركِكما مجردتين من ضمان للقمة العيش، ولكي أرى كل هذا التعب والاجتهاد يتبدد أمام عيني كما تتبدد حلقة من الدخان؟ وإني لأقسم بكل مقدس في الأرض والسماء أنني سأسوي الأمر معه بما يصون مصالحك

ويرد عنك شره هذا المحتال. سأراجع دفاتره، ولن يغمض لي جفن أو أهنأ بطعام أقيم به أودي قبل أن أتحقق من صيانة أموالك كاملة. وإذا لم تسعفني المحاكم التجأت إلى البرلمان. سأقلب الدنيا قبل أن أسلم لحظة واحدة بتجريدك من هذا المليون الذي شقيت طول حياتي لأوفره لك. يا إلهي! إن نارا حامية تستعر في صدري وأحشائي، وكأن حريقا هائلا قد شب في دماغي. دلفين ابنتي لا تملك شروى نقير؟ كلا وربي! أين قفازي؟ هيا بنا! هيا بنا لنطلع على الدفاتر الآن ونضع يدنا على المراسلات والخزينة ونفحص كل شيء في الحال. فلن أعرف للنوم طعما قبل أن أطمئن عليك. هيا قبل أن تسنح الفرصة ليهرب بما اختلسه من مالك، لأنه موقن أنني لن ألطخ بالوحل ذلك الاسم الذي تحمله ابنتي

– مهلا يا أبي! إني أشفقت عليك ولم أصارحك بكل شيء. أتدري ماذا فعل هذا الوغد على التحقيق؟ أتدري ما هذا الذي يسميه مشروعات ناشئة لا تزال عقيما؟ إنه يشتري الأرض الفضاء باسمي ثم يبني فوقها بيوتا تحت ستار أشخاص آخرين يتعاقدون مع المقاولين على تسديد التكاليف على آجال طويلة، ثم يبيعون زوجي البيوت بعد أن تتم بثمن بخس، ويلعنون بعد ذلك إفلاسهم للتخلص من ديونهم قبل المقاولين. أما المبالغ ذات القيمة التي تحت يده فإنه يشتري بها عقارات وأسهما باسمه خارج البلاد، بحيث لا تصل إليها أيدينا.

وفي هذه اللحظة سمع إيجين صوت سقطة قوية، فقد انهار الأب جوريو على أرض غرفته وهو يصيح بصوت متحشرج:

– وا رحمتاه لك يا ابنتي! لماذا رضيت أن أسلمك لهذا الوغد الذي اعتصر دمك وأشقاك؟

– وهل تدري يا أبي المعنى الذي قصد إليه بمنحي الحرية؟ أنه يعني بذلك مساومتي على ترك الحبل لي على الغارب في علاقتي بإيجين في نظير تخويلي إياه المضي في استغلال ثروتي. فهو يريدني أن أدفع هذا الثمن إذا شئت ألا أعتقل في البيت فلا أتصل بإيجين. ولكن لماذا تلوم نفسك إلى هذا الحد؟ إن الخطأ خطئي أنا لأنني أنا التي تخيرت هذا الزوج، فلا تبك يا أبي

– ولا تبكي أنت أيضًا يا دلفين. قربي عينيك حتى أجفف دمعهما بشفتي. هه! أنهضيني لأستعد لمصاولة هذا النصاب.

– بل دعني أنا أتصرف في الأمر، فهو يحبني وأنا مستطيعة أن أستغل سلطاني عليه لاستخلاص جزء من حقي. ولكن تعال غدا لتطلع على الدفاتر، فالمحامي لا يفقه شيئا في الأساليب التجارية. بل ليس غدا، فإني لا أريد أن أكدر دمي في اليوم السابق للحفلة الراقصة الكبرى عند الفيكونتس دي بوسيان، بل أريد أن أبدو جميلة سعيدة في صحبة عزيزي إيجين.

فهيا بنا لأرى حجرته...

المصائب لا تأتي فرادى

ولكنهما لم يتحركا من موضعهما، لأن صوت انستازي دي ريستو سمع في السلم، وهي تصعدها نهبا إلى حجرة أبيها، فأنفذ حضورها في هذه اللحظة إيجين من انكشاف وجوده في حجرته وسماعه هذا الذي سمع؛ فلما سمعت دلفين صوت أختها، قالت لأبيها:

– آه! ألم يبلغك شيء عن انستازي؟ فإنه يخيل إلى أنها تعاني متاعب هي أيضًا في بيتها

– ماذا تقولين؟ هذا فوق ما أحتمل. أن هذه تكون ثالثة الأثافي وقاصمة الظهر! أما تأتي المصائب أبدا فرادى؟

ودخلت الكونتس، فأدهشها أن تجد دلفين عند أبيه في هذه الساعة، وشعرت بشيئ من التحرج والضيق. فقالت لها دلفين:

– أهلا «نازي». أيدهشك أن تريني هنا؟ لا تستغربي هذا، فأني أنا أراه يوميا ولا أقصر في ذلك!

– منذ متى؟

– لو كنت تأتين لزيارته، لعرفت منذ متى...

– دعي المناكفة بالله يا دلفين فإني امرأة شقية. أدركني يا أبي، فقد

قضى علي القضاء الأخير هذه المرة.

– ماذا ألم بك يا ابنتي؟ صرحي بكل شيء، وأنت يا دلفين تلطفي معها، فيجب أن نتعاون في وقت المحنة؛ فإن هذا يجعلني أحبكما أكثر مما أفعل، لو أن هذا في الإمكان!

فقالت دلفين وهي تربت على أختها وتساعدها على الجلوس:

– تكلمي يا «نازي» فأمامك الشخصان اللذان يحبانك في هذه الدنيا حبا خالصا لا نفعية فيه ولا زعل.

وقربت من أنفها «الأملاح» حتى يفرخ روعها، فلما استردت هدوءها قالت في أسى:

– سأموت يا أبي! إن زوجي يعلم كل شيء. أتذكر يا أبي ذلك الدين الذي كان مستحقا على مكسيم منذ مدة؟ إنه لم يكن الأول من نوعه، فما أكثر «الشيكات» التي يحررها وليس مقابلها ما يغطيها. وكم من مرة قمت بدفع قيمتها. ومنذ أكثر من شهر بدا لي مكسيم كثير الشرود، ولكنه لم يصح لي بشيئ، بيد أن المرأة تحذق قراءة سرائر الذين تحبهم. ثم إنني لاحظت مبالغته في الرقة والتوله؛ فالمسكين كان يودعني بهذه الرقة الوداع الأخير، لأنه كان عازما على إفراغ مسدسه في جبهته. فشددت عليه، وضيقت الخناق، حتى اعترف لي بالحقيقة بعد أن ظللت راكعة على ركبتي أمامه ساعتين، أتوسل، وأبتهل! فهل تدري كم فرنكا قيمة الشك الذي حرره بلا رصيد؟ مائة ألف فرنكا! فجن جنوني يا أبي، فلست تملك هذا

المبلغ، لأنني أتيت على كل ما كان باقيا لديك من ثمالة ثروتك..

– أجل يا ابنتي، ليس معي هذا المبلغ، ولا طاقة لي بالحصول عليه، اللهم إلا إذا سرقته... ولكني كنت مستعدا أن أسرقه.. وسأسرقه لك إذا شئت!

وأمام هذه الصيحة التي لا تنبعث إلا عن قلب استبد به الألم، ووقف بصاحبه على أبواب الجنون، وجمت المرأتان، وقد تحرك قلباهما لهذا الشقاء المبرح الذي أورثتاه والدهما العطوف.. إن كارثتهما هي التي سبب له هذا، فندت عنه هذه الصرخة التي كأنها حجر ألقي به في هوة بعيدة الغور، فكشف عن مبلغ عمقها البعيد...

وقالت له انستازي وهي تنخرط في البكاء:

– لقد فعلت أنا هذا بدلا عنك يا أبي؛ فقد نشدت هذا المبلغ بالتصرف بما ليس ملكا لي!

فاحتضنت دلفين أختها وبكت على صدرها وهي تصيح:

– وا أسفاه! إذن كل ما قيل صحيح..

وتأثر والدهما لهذا التعاطف الذي جاء متأخرا فصاح بهما:

– لماذا لم يجتمع قلباكما يا ابنتي إلا على خطب داهم؟..

واستطردت الكونتس وهي تخفف دمعها عبثا:

– .. فلكي أنقذ مكسيم من الفضيحة والعار، وأنقذ حياته من الانتحار، ولكي أنقذ هنائي المعلق بشخصه، جمعت مجوهرات أسرة ريستو، التي قدمها لي زوجي لأتحلى بها فقط، وحملتها إلى مراب يهودي قاس القلب، يدعى «كوبسك» وبعتها! بعتها وأنقذت حياة مكسيم.. ولكنني وضعت حياتي أنا تحت الخطر بدلا منها.. فقد عرف ريستو كل شيء...

فصاح جوريو محنقا:

– من الذي قال له؟... من هو؟ سأقتله!

–.. بالأمس دعاني لموافاته في حجرته، فلما ذهبت قال لي بصوت بارد كالثلج: «أين المجوهرات؟» فقلت له «عندي.. في دولابي» فأجابني بنفس الهدوء القاتل: «كلا! إنها هناك، فوق هذا النضد!» ونظرت فإذا هي موضوعة تحت منديل غطاها به، وقال لي: «وأنت تعرفين طبعا من أين أحضرتها الساعة»؛ فسقطت تحت قدميه على ركبتي باكية وقلت له أنني أمته، وأن له أن يختار لي الميتة التي يرضاها..

– أقلت له هذا حقا يا ابنتي؟ أقسم برب العزة والجبروت أن من مس شعرة واحدة من شعر رأسك ليدفعن ثمنها حشاشة روحه! إنني أقطعه إربا إربا مثل...

واقتتلت الكلمات على فم الشيخ الهائج بالغضب، فسكت، وقالت ابنته:

– بل هو قد طلب مني ما هو أقسى من الموت وأدهى، ولا كتب الله على امرأة في الدنيا أن تسمع مثل هذا الذي سمعت منه على كره مني

– سأقتل هذا الرجل! سأخنقه بيدي! سأقطع أوصاله! ولكن الملعون ليست له إلا حياة واحدة تزهق. تمنيت لو أن له مائة حياة لأزهقها كلها واحدة بعد واحدة!

– لقد نظر إلي برهة وهو صامت ثم قال لي: اسمعي يا انستازي، إنني مستعد أن أجر على ما حدث ذيل الصمت، فنبقى معا، فإن لنا طفلين يحملان اسمنا. وسوف لا أقتل مكسيم دي تراي لأن المبارزة قد تؤدي إلى قتلي، وإذا قتل هو تعقبتني سلطة القانون، وأما قتله وأنت في أحضانه فإنه يلطخ اسمي واسم أسرتي بالعار. فإبقاء عليك وعلى الطفلين وعلي أنا أعرض عليك شرطين. فهل في هذين الطفلين ولد من صلبي؟ فقلت له: «أجل» فسألني: «أيهما؟» فأجبته: «ابننا الأكبر أرنست» فقال: «حسنا! والآن اقسمي أن تطيعيني في أمر واحد» فأقسمت، فقال: «عليك أن توقعي عقد بيعك كل ما تمتلكين لمصلحتي متى طلبت إليك ذلك».

– لا توقعي! لا تقبلي هذا أبدا! ماذا إذن يا سيد دي ريستو! ماذا تظننا؟ وماذا تظن نفسك؟ إنك لا تعرف كيف تسعد امرأة، فإذا نشدت السعادة حيث وجدتها ذهبت تعاقبها على عجزك. ولكنني هنا وقف عند حدك لأنني واقف لك في الطريق! أجل يا ابنتي، اهدئي بالا، فإنه قد عرف الآن وريثه، ولكني سأخطف هذا الوريث، سأخطف ابنه، الذي هو للأسف حفيدي، فأخفيه في قريتي، ولكن لا تخافي! فسأحافظ عليه كنور

عيني، ثم اضطره إلى رفع الراية البيضاء بأن أقول له: «إذا أردت استرداد ابنك، فأعد إلى ابنتي جميع ممتلكاتها ودعها تحيا على هواها».

– أبي العزيز!

– نعم.. نعم أنا أبوك العزيز! أبوك بمعنى الكلمة! أيظن هذا النبيل أنه مطلق التصرف في حياة ابنتي؟ يا للسماء! لست أدري ما هذا الذي يسري في عروقي كالحميم! إني أحس كما لو كنت قد انقلبت نمرا هائجا. ولا عجب فأنتما عندي الحياة كلها. ولكن ماذا عساكما تفعلان حين يطويني الموت؟ ربي، لماذا لا تطيل عمر الآباء ما طالت أعمار بنيهم حتى يحوطوهم بالرعاية حتى النهاية؟ إن الآباء قلوبهم متعلقة ببنيهم فكيف سمحت رحمتك أن تسوءهم فيهم بمكروه ينزل بهم؟ آه يا ابنتي! ها أنتما تجتمعان بي أخيرا كما كنا في العهد الخالي قبل أن يفسد الأصهار حياتي. ولكنني وا أسفاه مدين للخطوب والنوازل بهذا الاجتماع، فلا أحظى برؤيتكما إلا والدمع يخضل وجنتيكما! ولكن لا عليكما، فإن قلبي كبير ويتسع لآلامكما وفي استطاعته أن يحملها عنكما. ماذا؟ بل أنكما لو حطمتما قلبي لصلحت كل قطعة متناثرة منه أن تكون قلبا أبويا ينبض بحبكما ويألم لكما

– ولكن هذا ليس كل شيء يا أبي

– أهناك شيء آخر أيضًا يا انستازي؟

– أجل. فإني لم أتمكن من بيع المجوهرات بمائة ألف فرنكا كاملة،

فأقيمت الدعوى على مكسيم وإن لم تنظر بعد، فلا يزال ينقصنا أثناء عشر ألف فرنكا. وقد وعدني أن يقلع على الميسر. وأنت تعلم أنه لم يبق لي في الدنيا إلا حبي له، فلا أطيق أن أحرم منه بعد أن دفعت ثمنه غاليا من راحتي وثروتي وسمعتي وأمن سربي، بل وأولادي. فاجتهد يا أبي في إنقاذ حريته وشرفه حتى يتسنى له أن يكون لنفسه ثروة من جديد، فلا يخرج ابننا إلى العالم مجردا من كل درهم، لأن ريستو سيحرمه من ميراثه كله ولا مراء.

–وا أسفاه، لست أملك هذا المبلغ. فلم يبق عندي شيء يساوي هذه القيمة، فليس لي إلا ما يمدني بدخل لا يزيد على ألف ومائتي فرنكا في السنة مدى الحياة

– أين ذهب إيرادك الدائم؟

– بعته غير محتفظ إلا بهذا الشيء البسيط لحاجاتي الضرورية فقد احتجت إلى اثنى عشر ألف فرنكا لتأثيث وكر صغير لدلفين

– فهمت.. من أجل دي راستنياك إذن. يا شقيقتي المسكينة، اتعظي بما حدث لي ودعي هذه النزوات

–ولكن دي راستينياك يا أختاه شاب مهذب لا يقدم على تحطيم حياة عشيقته

– شركا لك يا دلفين، فقد كنت أتوقع في محنتي أن تكوني ألطف من

هذا، ولكنك لم تحبيني قط

– وهل أنت التي تحبينني؟ ألم تطارديني بدسائسك في كل مكان وتعملي على إغلاق جميع الأبواب في وجهي؟ وهل كنت أنا آتي إلى أبي كل يوم لأبتز منه ألف فرنكا في إثر ألف فرنك حتى أتيت على جميع ما كان يدخره وانتهيت به إلى هذه الحالة؟ هذا عملك يا أختاه وفعل يدك. أما أنا فكنت أحضر لرؤيته لغير غرض، ثم أنا لم أعلم إلا في هذه اللحظة أنه أنفق في سبيلي هذه الاثنى عشر ألف فرنكا. ثم ليس من عادتي إذا أهداني أبي شيئا أن أبدده وأبيعه

– أنت تقولين هذا لأن عشيقك دي مارساي شاب غني لم يكلفك شيئا. وداعا، فليس لي في الدنيا أخت ولا...

فصرخ الأب جوريو:

– اخرسي. ماذا جرى لكما حتى تتخاصما هكذا أمامي، أتريدان أن تقضيا علي القضاء الأخير؟!

– إني أغفر لك يا نازي، فأنت مسكينة شقية.. لهذا لا أحاسبك على جميع ما سلف منك في حقي من المكائد طيلة السنوات التسع الماضيات

– يا ابنتي العزيزتين، تعانقا وتصافيا فكلا كما ملك كريم.

فصاحت الكونتس معرضة وهي تدفع عنها يد أبيها:

– كلا.. دعني.. إنما أقل رحمة بي من زوجي نفسه

– يا أختي إني أفضل ألف مرة أن تتقولي على بأنني مدينة لدي مارساي من أن يقال عني أن عشيقى دي تراي كلفني مائتي ألف فرنكا كما كلفك..

وهنا ابتدأ الشجار ينتقل من التراشق بالألفاظ إلى الرغبة في التماسك بالأيدي، فاندفع الأب جوريو يحول بينهما، ثم أخذ الكونتس بين ذراعيه ليهدئ روعها، ووضع كفه على فمها ليمنعها من الاسترسال في سب أختها، فإذا بها تصيح به في اشمئزاز:

– ما هذا يا أبي؟ ما هذه الرائحة العالقة بيدك؟

فخجل الرجل الطيب وأخذ يعتذر إليها قائلا وهو يمسح يديه في بنطلونه:

– لا تؤاخذيني، فما كنت أعلم أنك آتية في هذه الساعة، وكنت منهمكا في ترتيب حوائجي!!

وكأن الرجل قد سُرّ بتحول جانب من غضب ابنته إليه. أما دلفين فرأت لما هدأت أمارات الألم المبرح مرتسمة على وجه شقيقتها.. فقالت لها في إخلاص:

– سامحيني يا أختاه فقد أخطأت. تعالي قبليني

وتعانقت الفتاتان فسرى عن الرجل ما كان يجده، وعاد إلى التفكير في مشكلة ابنته الكونتس فأخذ يجذب شعر رأسه ويقول:

– آه لو كنت أعلم مكانا أسرق منه هذا المبلغ، ولكن حتى السرقات أصبحت عسيرة في هذه الأيام.. لم يبق إذن إلا أن أموت، ما دمت قد بت ولا نفع في ابنتي. ابنتي تحتاج إلى شيء وتطلبه مني ولا أستطيع أن أقدمه لها؟ ما قيمة الحياة بعد هذا ما دمت لم أعد أبا صالحا!!

وأخذ يدق رأسه بكلتا يديه كمن به مس؛ فأقبلت ابنتاه عليه تمنعانه وتحاولان تهدئته، فأنشأ يبكي. فما كان من إيجين الذي كان لا يزال واقف في غرفته يتسقط السمع إلا أن تناول أمر الصرف الذي كان فوتران قد أعطاه إياه، وصحح الرقم فجعله اثنى عشر ألف فرنكا لأم السيد جوريو، ودخل حجرة الشيخ فوجه الخطاب إلى الكونتس دي ريستو قائلا:

– هذا هو المال الذي تطلبينه يا سيدتي. فقد كنت نائما فأيقظتني مناقشتكم الحامية، وعرفت منها القيمة الحقيقة للمبلغ الذي يدينني به السيد جوريو. وإني أعد بشرفي أن أدفع المبلغ، فهو ممكن التحويل لأي مصرف

فرمقت الكونتس شقيقتها بنظرة صاعقة وقالت لها:

– أستطيع أن أغفر لك كل شيء يا دلفين إلا هذا. كيف تعلمين أن السيد إيجين موجود في الحجرة المجاورة ثم تستدرجينني لكي أبسط أسراري وتفاصيل حياتي الخاصة، والسر الذي يكتنف مولد طفلي، والعار الذي

يحيق باسمي؟ إنني أكرهك وألعنك..

وسكتت لأن حلقها كان قد جف من شدة الغضب والغيظ فأسرع الأب جوريو يتراضاها ويقول لها:

– ولكنه ابني وأخوك ومنقذك. قبليه إذن. انظري إلى كيف أحتضنه الآن وأقبله. يا ولدي العزيز: سأكون لك أكثر من أب. ولو كانت بيدي الشموس والكواكب لطرحتها تحت قدميك. تعالي يا انستازي قبليه فهو ليس بشرا، إن هو إلا ملك كريم

ووقفت الكونتس ترمق الفتى في صمت كأنها تستطلع طلته، فقال لها أنفة وصدق:

– سيدتي.. ثقي أنني سأدفع وسأسكت

وفي هذه اللحظة صرخت دلفين، لأن الشيخ كان قد سقط على الأرض في شبه إغماء، فلما حلوا أزرار قميصه ورأي لهفتهم جعل يقول أنه بخير، وأنه طارئ يزول وشيكا، فكل ما هناك أن شيئا يضغط على جبهته ويسبب له دوارا. ثم تمتم:

– همي كله من أجل نازي. يا للبنت المسكينة.. فإني مشفق عليها من غوائل المستقبل المظلم تصافيا يا ابنتي..

وصاحت انستازي:

– لا أستطيع أن أصفح عنها. لن أنسى لها هذا. ولكن هلا وقعت يا أبي على هذا الإذن حتى أستطيع صرف قيمته؟

– ماذا دهاني حتى نسيت؟ ولكن اعذريني فقد فاجأني هذا العارض. وثقي أنني سأذهب بأول فرصة لأقوم بما يجب نحو صيانة مصالحك من هذا الزوج الغليظ القلب. هاك توقيعي فاذهبي الآن وارسلي إلي خبرا أن المسألة سويت. وحاولي أن تلزمي مكسيم جادة العقل

وبهت إيجين لهذا الحنان المفرط. فلما انصرفت انستازي أقبل على الأب جوريو فرفعه إلى الفراش وجعل يتلطف معه.

– بماذا تشعر الآن؟

– برغبة شديدة في النعاس

ولم يلبث الشيخ أن نام وفي يده كف دلفين. فلما استغرق في النوم سحبت يدها واستأذنت في الانصراف، ولكنها رغبت أولا في مشاهدة حجرة إيجين التي سيبقى فيها ليلة أخرى بعد أن حالت حالة أبيها دون النقلة إلى المسكن الجديد هذه الليلة

– رباه. إنك أسوأ حالا من أبي المسكين. ولكني فخورة مع أختي، وسأحبك من أجل هذا أكثر وأكثر.. ولكن إذا أردت أن تكون لك ثروة في يوم من الأيام فلا تبذر على هذا النحو وأعلم أن مكسيم مقامر كبير لا يستحق المساعدة، وكان عليه أن يدبر هذا المال بوسائله الخاصة.

ونمت إليهما أنة فأسرعا إلى غرفة الأب جوريو، فوجداه نائما في ظاهر الأمر ولكن عندما اقتربا سمعاه يتمتم:

– إنهما ليستا سعيدتين!

فأقبلت عليه دلفين تسأله عن حاله فقال:

– لا تقلقي، فبعد قليل سأنهض وأخرج. اذهبا أنتما واغتنما لذاذات الحياة

وصحب إيجين دلفين إلى دارها، ولكنه رفض مشاركتها طعام العشاء متعجلا العودة ليطمئن على صحة الشيخ المسكين..

بداية النهاية

متاعب الأب جوريو لم تمنع إيجين من أن يلتقي بدلفين في الأوبرا الإيطالية، ومن الاستمتاع بالسهرة معها، ومن العودة معها إلى مسكنه الجديد حيث شربا من كأس الهوى إلى أن فارقته دلفين في الثانية صباحا لتعود إلى بيتها. وكان هو مجهدا فآثر قضاء الليل في هذا المسكن، ولم يصح من نومه إلا قرب الظهر حين وافته دلفين لترشف رشفة أخرى من نبع الغرام، وتتغدى مع حبيبها. فقد نسى الشاب في ثورة الأعصاب المتشوقة للهوى أن الشيخ جوريو يشكو منذ الأمس، وأنه وحده وليس من يرعاه، فلم يذهب إيجين لزيارته إلا بعد الرابعة مساء. فلما دخل قال له أحد النزلاء أن حالته زادت سوءا وأن بيان شون طالب الطب ملازم له، وأن الكونتس زارته مرة أخرى فلبث مهتاجا ثم ارتدى ملابسه وهم بالخروج فأغمي عليه، فأسرع إيجين يصعد السلم، ولكن نادته مدام فوكير:

– كان من المتفق عليه أن تخليا حجرتيكما في ١٥ الجاري. وها نحن أصبحنا في يوم ١٨. فيجب أن تدفعا لي الشهر الجديد كاملا. ولست أقول هذا من أجلك أنت، فإذا ضمنت لي الأب جوريو فإن كلمتك تكفيني

– ولماذا! لم لا تثقين به؟

– أثق؟ وإذا مات من يدفع لي الأجر؟ إن ابنتيه لن أظفر منهما

بدرهم واحد. ولم يبق لديه من المتاع ما يفيني حقي

– أنا المسئول عن كل شيء

وأسرع يصعد السلم وهو يرتعد رعبا، فوجد الأب جوريو في فراشه يئن وإلى جواره طالب الطب. وابتسم الشيخ حين رآه وسأله:

– كيف حالها؟ هل تمتعت بليلتها؟

– هي بخير.. وكيف حالك أنت؟

– لا بأس

فانتحى بيان شون بإيجين جانبا وقال له أن الشيخ لن ينجو إلا بمعجزة فلا تتبعه بكثرة الكلام. ثم أن نقله مستحيل لأنه يجب أن يجنب كل مجهود جسدي أو عصبي. وقد دعوت له مدير مستشفانا ولكنه بعد الفحص قال أن لا يمكن أن يدلي برأي قاطع قبل الغد

– إذن دعني معه قليلا واذهب أنت لتناول عشائك

فلما خرج بيان شون سأل إيجين الأب جوريو عن سر حضور انستازي إليه في الصباح الباكر

–يا للمسكينة! لقد حرمها زوجها المتوحش من كل درهم منذ حادثة المجوهرات. وكانت قد أوصت من أجل الحفلة الراقصة على ثوب رائع، ولكن حائكتها لم تقبل إمهالها الدفع بعد أن شاعت قصة المجوهرات.

فتقطع قلبي وجمعت الفضيات التافهة التي كانت باقية لي، وكنت آكل فيها، فنزلت وبعتها وأعطيتها قيمتها حتى تستطيع أن تتسلم ثوبها وتفرح بلبسه في الحفلة، ثم هي معلقة بالذهاب لتنفذ رغبة زوجها الذي يريده أن تظهر للملأ بالمجوهرات التي شاع أنها باعتها حتى تسكت الألسنة المتخرصة. ولم تكف الفضية لوفاء الألف فرنك المطلوبة فبعت إيرادي هذا العام بأربعمائة فرنك تدفع مقدما، إني أستطيع أن أصوم أو آكل الخبز القفار، أما طفلتي المسكينة فكيف تستطيع أن تتحمل ألم الحرمان من ليلة سعيدة؟

– كفي كلاما وأنت متعب. ثم واسترح ولا تتكلم

ولما صعد بيان شون هبط إيجين ليتعشى، ثم تناوبا معا السهر على فراش المريض، وفي الصباح قال بيان شون أن الحالة لم تزدد سوءا. وفي الساعة السابعة مساء جاءت تيريز وصيفة دلفين بخطاب من سيدتها هذا نصه:

«ماذا تصنع يا صديقي العزيز؟ وماذا شغلك حتى هجرت حبيبتك وإنما بعد في بداية غرامكما الملتهب؟ لا أنسبك إلى التقلب وغدر العهد، فأنت أوفى الناس. ولكن لا تنس أنني أنتظرك الليلة لنذهب معا إلى حفلة مدام دي بوسيان الراقصة. وبهذه المناسبة أعلم أن إذن زواج الماركيز داجودا وقعه الملك اليوم، وقد علمت الفيكونتس ذلك في الساعة الثانية، فلا ريب أن كل من في باريس سيذهب إلى حفلتها الليلة ليرى ماذا هي صانعة، كما تزدحم الجماهير في الميدان العام لتشاهد تنفيذ حكم

بالإعدام.. أليس هذا مؤلما؟ إنني لم أكن لأذهب لولا أن هذه أول دعوة أتلقاها منها، ثم هي لن تقيم حفلات بعد اليوم فيما أعتقد. وهناك كذلك متاع مصاحبتها الذي لا أحب أن يفوتني. فإذا لم أجدك بجواري بعد ساعتين فلا أظن أنني سأغتفر لك هذا الهجران» فتناول إيجين قلما وكتب إليها يقول:

«أنا الآن في انتظار حضور طبيب سيقرر هل يمكن أن يعيش والدك أم لا، فحالته سيئة جدا، وسآتي لأحمل إليك قرار الطبيب، وإن كنت أخشى أن يكون بالغ السوء، وعلى ضوئه يمكن أن تقرري الذهاب إلى الحفلة الراقصة أو الاعتذار عنها، قبلاتي»

وجاء الطبيب بعد الساعة الثامنة، وكان رأيه أن المريض ميئوس منه، ولكن مرضه قد يطول، وأن حياته تتوقف على عدد النوبات ومبلغ عنفها. فترك إيجين المريض بين يدي بيان شون وذهب ليحمل إلى دلفين هذه الأخبار المؤلمة التي كان يقدر أنها ستقضي على كل اهتمام لديها بالمسرات الاجتماعية. وفيما هو يهم بالخروج تنبه الأب جوريو فصاح به:

– قل لها تتمتع بالحفلة والرقص كما ينبغي

وذهب إيجين وحالة الشيخ تدمي قلبه فوجد دلفين متزينة متعطرة، لا ينقصها إلا ارتداء ثوب الرقص، فصاحت به:

– ما هذا؟ ألم تلبس بعد ثوب السهرة؟

– ولكن والدك يا سيدتي..

– أبي أبي أبي! أتراني بحاجة إلى أن أتلقى منك دروسا فيما ينبغي علي لوالدي؟ كلا. لا تتكلم! لن أسمع منك شيئا إلا بعد أن ترتدي ملابسك. فتيريز وصيفتي قد أعدت لك كل شيء في مسكنك الجديد، فخذ عربتي واذهب إلى هناك وتعال بها على عجل، أما أبي فلدينا متسع ونحن في الطريق إلى الحفلة الراقصة للكلام عنه. فالزحام سيكون شديدا ولا بد أن نذهب في وقت مبكر

– سيدتي...

– اذهب.. قلت لك ولا تنطق بكلمة واحدة

فذهب الفتى كما أشارت عليه وعاد وهو في أشد حالات السخط والأسى، حتى لقد تمثل له العالم محيطا من الوحل إذا انزلقت إليه قدم إنسان غرق حتى الآذان، وبدا له الجحود وقد هانت في جانبه كبائر فوتران، ففي توتران أريحية لا وجود لها عند هؤلاء المترفات من ربات الخدور وربيبات القصور. وتكشفت له حقيقة عشيقته الجميلة الرقيقة، فعرف أنها لا تحجم عن وطء جثة أبيها إذا لم يكن هناك طريق آخر إلى حفله راقصة تبهر فيها الأنظار.. وعجب لنفسه أنه لا يزال بعد هذا يحبها، بل ويلتمس لها المعاذير من جهلها بحقيقة حال والدها

فلما استقلا العربة إلى قصر الفيكونتس دي بوسيان التفتت إليه وسألته عن أبيها وحاله:

– شرح حال يا سيدتي. ويا حبذا لو مررنا الآن لعيادته

– سنعوده طبعا ولكن بعد الحفلة، فلا تكن متزمتا

فوجم الفتى، فسألته:

– ما بك؟

– إن أنين أبيك يرن في أذني

ثم أخذ يقص عليها بطلاقة تفاصيل ما وقع لأبيها وزيارة أختها له وما سبته له من نوبة قلبية تشوك أن تودي به من أجل ثوب تبدو به في حفلة الليلة. فدمعت عينا دلفين وقالت:

– لقد أبكيتني، وأخشى أن يقرح البكاء أجفاني فأبدو في الحفلة قبيحة الشكل، ويقوم برأسي الآن أن أذهب فألزم فراش أبي

– مرحى! هكذا أملي فيك ولكن مصابيح العربات الخمسمائة التي تتجه إلى قصر دي بوسيان أخذت تتلألأ أمام عيني دلفين، فقالت:

– سأذهب، ولكن بعد الحفلة

وكانت الفيكونتس تستقبل المدعوين بكل بشاشة واتزان، وقد أفلحت كبرياؤها في إخفاء حزنها الوجيع، فغدت كأنها ملكة من ملكات الزمان الخالي، أو كأنها فارس من فرسان الرومان يلقى الموت أمام الجماهير ويصارع الوحوش باسم الثغر. فلما رأت الفيكونت إيجين داخلا رحبت به

بحرارة وأخبرته أنها بحاجة إليه، ثم تأبطت ذراعه إلى أريكة بقرب رجال الموسيقى وقالت له:

– اذهب الآن إلى دار الماركيز، وسيصحبك جاك الوصيف إلى هناك ويعطيك خطابا تسلمه إلى الماركيز أطلب إليه فيه أن يرد إلى جميع خطاباتي وأنا واثقة أنه سيسلمها إليك جميعها. فإذا أعطاكها فاصعد إلى حجرتي الخاصة وأرسل في طلبي.

ونهضت كأنها لم تكن تنبش جراح قلبها الدامية لتستقبل صديقتها الدوقة دي لانجين التي فصحب الماركيز إلى قصره وسلمه صندوقا مقفلا وقال له:

– خطاباتها كلها بداخل هذا الصندوق

وكان يبدو على الماركيز أنه يريد أن يقول لإيجين شيئا، لعله السؤال عن الفيكونتس وعن مدى احتمالها للصدمة، ولكن كبرياءه حالت دون ذلك، فقال لإيجين بعد لحظة صمت:

– لا تحدثها عني بشيء يا عزيزي إيجين

ثم شد على يد الفتى في تأثر وأسى. وفارقه إيجين إلى قصر بوسيان فأدخله الخدم إلى حجرتها الخاصة، فما لبثت هي أن لحقت به فيها، فوضعت يدها على كتفه، ورأى الدمع في عينيها لأول مرة، حين انتزعت منه الصندوق بيد مرتجفة فألقت به في نار المدفأة ووقفت ترقبه وهو

يحترق، وقد جف دمعه وجمدت معارف وجهها في أنفة وترفع؛ فانقبض قلب الفتى لهذا الذي رأى، وزاد إحساسه بحقارة الحياة وما تفيض به من آلام تكتوي بها القلوب الرقيقة الكريمة

ولم يفارق إيجين الفيكونتس تلك الليلة حتى انصرف جميع الناس وودعها وداعا حارا، لأنها قررت منذ ذلك اليوم أن تعتزل المجتمع في ركن قصي من الريف، كانت الساعة تقرب من الخامسة صباحا حين فارقها محزونا .

نهاية المطاف

بالرغم من أنها طويلة جدا، إلا أن إيجين أمضى المسافة بين قصر الفيكونتس والبنسيون سيرا على قدميه تحت ندى الصبح الباكر الشديد البرودة، برودة الهزيع الثاني من فبراير. وقصد على أثر وصوله إلى حجرة جاره الشيخ، فإذا بيان شون طالب الطب يعلن إليه أن الأمل في إنقاذ الأب جوريو قد تلاشى. وأوى إيجين إلى فراشه حزينا، فما انقضت ساعتان حتى أيقظه طالب الطب لينوب عنه في ملاحظة المريض، لاضطراره إلى الخروج. وعلم منه إيجين أن حالة جوريو قد ازدادت سوءا:

– إنه لا يعيش إلا ساعات، ولكن ليس لنا أن ندع المحاولة وبذل المجهود لإنقاذه وهو في حاجة إلى علاج كثير التكاليف، وليس معي أن درهم واحد، وقد قلبت جيوب الأب جوريو ودولابه فلم أجد لديه دانقا، فكم معك أنت؟

فقال إيجين:

– لم يبق معي إلا عشرون فرنكا، ولكني سأقامر بها وأكسب...

– وإذا خسرت؟

– أطلب مالا من صهريه وبنتيه

– وإذا لم يعطوك؟ المهم الآن على كل حال ليس المال، وإنما لف المريض بلبخة من قدميه إلى منتصف الفخذ، في درجة الغليان، فإذا صرخ كان هناك أمل في شفائه. وسيساعدك كريستوف في ذلك. ولا تغادره حتى أعود. وإذا طلب ماء أعطه مما في هذه الزجاجة

وتنبه الشيخ لوجود إيجين، ففتح عينيه وسأله بصوت متضعضع:

– هل تمتعتا بليلتهما؟

فصاح بيانشو:

– إنه لا يفكر إلا في بنتيه. فقد قال لي الليلة الفائتة أكثر من مائة مرة «إنهما ترقصان الآن». «انستازي تلبس الآن ثوبها الجديد...» وكان يناديهما باسميهما، ويوجه إليهما كلاما أبكاني، وأنا العصي الدمع

وعاد الشيخ يتمتم:

– دلفين! إنها هنا، أليس كذلك؟ أنا أعلم أنها هنا وتشنجت عيناه وهو يحدق في جهة باب الحجرة ثم في جدرانها..

فقال بيانشون:

– سأهبط لأوصي سيلفي بعمل اللبخ الحارة، فهذا أوانها..

وبقي إيجين وحده عند قدمي الشيخ الذي يجود بنفسه.. ومع هذا قد عرف إيجين بعد لحظات في نوبة صحوة أخرى، فسأله إيجين عن حاله

فقال:

– أحسن.. فقد بدأ الضغط الشديد على جبهتي يخف. هل رأيت ابنتي؟ إنهما ستحضران بعد قليل. ستسرعان إلى هنا متى سمعتا بمرضي.. كم كنت أتمنى أن تكون الحجرة نظيفة حتى تليق باستقبالهما، وأن تكون فيها نار للتدفئة

– إني أسمع كريستوف صاعدا بخشب للتدفئة

– خشب؟ ومن أين لي ثمنه؟ لم يعد لدي درهم واحد. هل كان الثوب الجديد جميلا؟ شكرا يا كريستوف. ولكن ليس معي شيء أدفعه إليك..

فقال إيجين لكريستوف همسا:

– سأدفع أنا كل شيء لك ولسيلفي..

وعاد الشيخ يقول للخادم:

– لقد قالت لك ابنتاي إنهما قادمتان يا كريستوف، أليس كذلك؟ اذهب إليهما مرة أخرى، وقل لهما إني متوعك، وإني أشتاق أن أقبلهما وأن أراهما مرة أخيرة قبل أن أموت. قل لهما هذا، ولكن بدون أن تفزعهما

وانصرف كريستوف بإشارة من إيجين واستطرد الشيخ المريض:

– ستأتيان، فإني أعرف الناس بقلبهما. لعمري إن هذه المسكينة

دلفين ستحزن حزنا مبرحا إذا أنا مت.. ونازي أيضًا.. لا أريد أن أموت حتى لا تبكيان.. والموت يا عزيزي إيجين معناه الحرمان من رؤيتهما.. فلا ريب في أنني سأشقى أينما ذهبت، إلى جنة صرت أو إلى نار.. فالجحيم الحق لدي بمعنى الكلمة هو حيث لا يكون بنوه.. ولكنني قضيت سنوات التحضير والتموين على هذا الجحيم منذ تزوجت بنتاي. أما نعيمي، فكان في بيتنا القديم في شارع جوسيين. وإذا قدر لروحي أن تطوف بالأرض في بعض الأحيان كما يزعمون أن الأرواح تطوف، فلا ريب عندي أنها ستطوف بذلك البيت السعيد.. وإني لأراها الساعة كما كانتا في تلك الدار، تهبطان في الصباح فتغردان في سمعي: عم صباحا يا أبتاه.. فآخذهما بين ذراعي، وأضعهما في حجري، وأظل أداعبهما ساعة طويلة، ثم نفطر معا، ونتغدى معا ونتعشى معا.. لقد كنت في هذا الوقت أبا سعيدا. وكانتا متحابتين. رباه! لماذا لم تبقيا صغيرتين؟.. آه! ما أشد هذه الآلام التي تنتابني.. ولو كانتا هنا، وكانت يداهما الصغيرتان في يدي، لكنت أجلد وأقوى على احتمال آلامي الجسدية المبرحة.. فهل تعتقد حقا أنهما ستأتيان؟ كم كنت أتمنى أن أذهب أنا بدلا من كريستتوف، لأنه هو سيراهما، أما أنا فباق هنا!.. ولكنك كنت معهما في الحفلة الراقصة بالأمس يا إيجين، فخبرني كيف كانت تبدوان؟ لم تكونا تدريان طبعا مبلغ مرضي.. يا لهما من مسكينتين! إنهما لا تزالان في حاجة إلي، وثروتهما تحوطها المخاطر.. اشفوني سريعا، حتى أحاسب زوجيهما الوغدين! اشفوني فلا بد لهما من المال، وأنا أعرف من أين أحصل على هذا المال: سأذهب كما كنت أذهب وأنا في شرخ الفتوة إلى أوكرانيا وأوديسا لأستورد القمح

وأربح الملايين مرة أخرى من أجلهما. آه: إن أوجاعي تثقل على احتمالي!..

وسكت الأب جوريو لحظة كأنما يستجمع قوته لتحمل آلامه ثم تمتم:

– لو كانت ههنا لما شكوت.. ولماذا كنت أشكو؟

ثم هدأت أنفاسه برهة طويلة حتى ظنه إيجين قد نام، فلما دخل كريستوف تركه يفضي إليه بما لديه بصوت مسموع:

– سيدي، لقد ذهبت أولا إلى سيدتي الكونتس ولكن لم أستطع مقابلتها لأنها مشغولة مع زوجها بأمر ذي بال. فلما ألححت خرج إلى الكونت بنفسه قال لي: أتقول أن السيد يحتضر؟ ليكن فخير ما يستطيعه أن يموت. أما الكونتس فأنا في حاجة إليها في الوقت الحاضر لإتمام مسألة مهمة، فإذا أتمتها ذهبت إليه. وكان يبدو عليه الغضب فلما هممت بالخروج إذا بالكونتس تظهر فجأة وتقول لي: «قل لوالدي يا كريستوف أنني مشغولة بالمباحثة مع زوجي ولا أستطيع أن أتركه الآن لأن الأمر يتعلق بحياة طفلي أو موتهما، ولكنني سأذهب إليه متى فرغت من تسوية هذا الموضوع». أما البارونة فلها قصة أخرى: فقد قالت لي وصيفتها: «لقد عادت سيدتي من المرقص بعد الخامسة صباحا وهي الآن لا تزال نائمة، وإذا أيقظتها عاقبتني. ولكنها متى استيقظت سأخبرها بسوء حال أبيها» وتوسلت إليها بلا جدوى، فطلبت مقابلة البارون فقيل لي أنه خرج

فصاح راستنياك مغيظا:

– أما من واحدة منهما تخف إلى أبيها؟ سأكتب إليهما

فقال الشيخ المريض:

– أجل ما من واحدة! فكلتاهما مشغولتان إما بالمشاكل أو بالأحلام. كنت أعلم أنهما سوف لا تأتيان. ويظهر أن الإنسان لا يمكن أن يعرف حقيقة أبنائه إلا حين يحم قضاؤه. فاسمع نصيحتي يا ولدي ولا تتزوج ولا تنجب أولادا لأن بنيك قاتلوك لا محالة. تخرجهم إلى الدنيا فيخرجونك منها. كلا إنهما سوف لا تأتيان.! وكنت أعلم هذا منذ عشر سنين وكنت أردده بيني وين نفسي في بعض الأحيان ولكنني لم أجد في نفسي من الشجاعة كفاء تصديقه وجالت في عيني الشيخ دمعتان وقفتا حائرتين بين المقلة والجفن أن تسيلا منهما

– ... آه .... لو أنني كنت غنيا ولم أنزل عن ثروتي لهما، لكانتا الآن إلى جواري تلعقان خدي بقبلاتهما، ولكنت الآن في قصر مشيد جميل الحجرات، زاهر بالخدم، تدفئه النار بغير حساب، ولكانتا الساعة لا يرقأ لهما دمع إلى جوار سريري هما وزوجاهما وأطفالهما. أما الآن فلا شيء من هذا كله، لأنني بلا مال، ولأنني أعطيت كل ما يمكن أن أعطي. كلا! بل إنني أفضل هذا الفقر المدقع الذي صرت إليه، فإن الفقير إذا شعر أنه محبوب أيقن أن هذا الحب خالص لذاته حقًا؟. كلا! بل ليتني كنت لا أزال غنيًا، فإنه لا يحق للأب أن يكون فقيرًا، فما له هو اللجام الذي تجتمع به في يده أعنة بنيه! رباه.. ها هما تتوجان ماسامتاني إياه عشر سنين سويا.. يا إلهي! إنك تعلم كم قاسيت منهما وكيف شربت من يديهما كؤوس الإذلال

مترعة حتى الثمالة، وكيف كانت شمس كل صباح تدخر لي طعنة من خنجر مسموم تغوص في سويداء قلبي بسببهما أو من يدهما، فلماذا يا إلهي تعرضني اليوم لهذا العذاب الجديد؟ ألم يكف ما تحملته تلك السنين العشر للتكفير عن جريمة حبي إياهما حبا أعظم مما ينبغي؟ إن ابنتي كانتا هما الشر الذي صنعت أمام الله.. كانتا هما موضوع خطيئتي ورذيلتي! إن ابنتي كانتا عشيقتي، كانتا خمري التي أدمن عليها، والميسر الذي لا أصبر عنه. وكم من مرة كنت أرى في عينهما أنهما تخجلان مني ومن جهلي بآداب السلوك في دنياهما الجديدة. ولكن لم تكن سني تسمح بإدخالي المدرسة من جديد.. رأسي تؤلمني. آه لو فتحها لي الطبيب ليخف بعض هذا الضغط عليها.. ابنتي انستازي ودلفين!! أريد أن أراهما.. أرسلوا إليهما الشرطة لتحضرا ولو بالقوة! القضاء والقانون والطبيعة في جانبي لإجابة هذا المطلب! إلى أين ينحدر الوطن وإلى أي هاوية يساق المجتمع إذا كان الآباء يداسون بالأقدام كما أداس؟ أريد أن أراهما وأسمع صوتهما، مجرد صوتهما، حتى ولو كانتا تقذفاني بالشتائم. ولكن قل لهما إذا هما حضرتا لا تنظرا إلي نظراتهما الفاترة كما تعودتا أن تفعلا معي، وإن كنت أتجاهل أنني لا أشعر بهذا الفتور. فقد أحببتهما كثيرًا بحيث ارتضيت لنفسي مهانة أن أتخفى وأتوارى لأراهما خلسة وهما تجتازان الطريق في حفل من زينتهما وركبهما الفاره. ولكن ها أنا ذا أموت ميتة البعير ولا تخفان لرؤيتي في ساعتي الأخيرة. أريد ابنتي! أريدهما، فأنا الذي صنعتهما.

وتوفز فجلس في فراشه وقد تشعث شعره الأبيض وتشنجت عيناه فهو في حالة من الهياج العصبي الخطر، فأخذ يهدئه إيجين:

– اطمئن يا أبي فسأكتب إليهما، ومتى حضر بيان شون سأتوجه إليهما بنفسي إن لم تكونا قد جاءتا.

فأخذ الشيخ المريض ينشج بالبكاء ويقول:

– إن لم تأتيا؟ إنني إذ أموت دون أن أراهما أنشق غيظًا وينفطر قلبي كمدا! بل إن الغيظ والكمد ليستوليان على وجداني الساعة، فها أنا ذا أرى حياتي كلها في هذه اللحظة كما لم أرها من قبل، فقد انقشعت عن عيني غشاوة الغفلة التي زودتني بها عاطفة الأبوة المفرط. ما دامتا لم تأتيا حتى الآن، فهما لن تأتيا أبدًا. ولكن لا يأس من رحمة الله، فسيتولى أبناؤهما الانتقام لي. ماذا أقول؟ بل هذه هي دلفين. ألم أقل لك من قبل أنها هنا. إنها خير الاثنتين. فأوصيك بها يا ولدي إيجين خيرًا، أحبها وكن لها أبا من بعد أبيها. أما الأخرى فمسكينة ليس لها في الدنيا من يرعاها. آه. لقد زاد علي الوجع. اقطعوا رأسي، فإنه يؤلمني ولا حاجة لي به. حسبي أن يكون لي قلب!

فقال إيجين وقد فزع للتطور الذي طرأ على حالة الشيخ:

– يا كريستوف، ادع بيان شون حالًا وأحضر لي عربة. سأذهب يا أبي لأحضر ابنتيك بنفسي

– عنوة! بالقوة! خذ معك الشرطة، وقل للحكومة وللنائب العام أنني أريدهما بأي شكل

– ولكنك كنت تلعنهما منذ لحظة

فبهت الشيخ وقال له باستنكار:

– من قال هذا؟ أنت تعلم كم أحبهما وأعبدهما. إن مجرد رؤيتهما سوف يشفيني مما بي. فاذهب يا ولدي العزيز الطيب القلب على بركة الله. كم كنت أود أن أشكرك على طيبة قلبك، ولكن ليس لدي ما أمنحك إياه إلا دعوات رجل شقي يقف على أبواب الآخرة. أريد أن أرى دلفين على الأقل لأوصيها بك نظير المعروف الذي صنعت معي. فإذا لم تأت الأخرى فهات دلفين، فإنها لن تعصاك وستأتي من أجلك. اسقوني! أحشائي تحترق. ضعوا شيئًا على رأسي. ضعوا فوقها يدى ابنتي، فإن هذا هو دوائي الناجع، رباه من يجمع لهما ثروة من جديد إذا مت أنا؟ أريد أن أشفى لأسافر من أجلهما إلى أودسا لاستيراد القمح

– هدئ روعك، فستراهما هنا بعد قليل

– رأسي. أحشائي. إنني أموت. إنني أباركهما

وراح في غيبوبة، وفي هذه اللحظة دخل بيان شون ففحص عينيه وهز رأسه وقال:

– لا أظن أنه سيفيق من هذه الغيبوبة. وخير له أن يموت لكي لا يطول عذابه. والمال! من أين لنا المال لإعداد كل ما يلزم؟

فأخرج إيجين ساعته وقال لبيان شون:

– أودعها رهينة واقترض عليها ما يمكنك من المال. فإني لا أريد أن أضيع دقيقة واحدة، ولا بد أن أجد هنا مالا أدفع منه أجر العربة عند عودتي من لدن هاتين البنتين الجاحدتين.

أقسى من الصخر

ما إن وصل إيجين إلى قصر ريستو حتى طلب مقابلة الكونتس فقيل له إنها معتكفة، فقال للوصيف:

– ولكني حاضر من قبل أبيها الذي يموت في هذه اللحظة.

– ولكن أوامر الكونت يا سيدي مشددة

– إذا كان الكونت هنا فإني أريد أن أقابله

وبعد برهة طويلة قاده الوصيف إلى صالون وجد فيه الكونت واقفًا أمام مدفأة ليس فيها نار، فقال له:

– يا سيدي الكونت إن والد الكونتس في النزع الأخير في هذه اللحظة، وحالته مؤلمة، فليس لديه فلس واحد ينفقه في التدفئة أو العلاج وهو يطلب أن يرى ابنته قبل أن يموت

فأجابه الكونت ببرود:

– أظنك لاحظت أنني لا أكن للسيد جوريو حبا شديدًا، لأنه أفسد علي ابنته وسبب لي شقاءً مقيما. فموته وحياته لدي سواء، فعندي الآن أمور أولى باهتمامي. أما الكونتس فحالتها لا تسمح لها بالخروج. ثم لا أوافق على مغادرتها البيت. فقل لأبيها أنها لن تذهب لرؤيته إلا بعد أن

تفي بواجبها نحوي ونحو ابني، فإذا كانت تحب أباها حقًا ففي استطاعتها أن تحصل على حريتها في لحظة واحدة.

– أنت مطلق السلطان على زوجتك يا سيدي الكونت. ولكني ألجأ إلى أريحيتك. فهل تعدني بإبلاغها أن أباها لم تبق له في الحياة إلا سويعات وأنه قد صب لعنته عليها لتخلفها عن سرير موته؟

– قل لها أنت هذا الكلام بنفسك

وقاده إلى صالون آخر فوجدها غارقة في الدموع حتى لقد تحركت شفقته عليها. وألقت على زوجها نظرة وجل ورعب فأومأ الكونت برأسه مرخصا لها في الكلام فقالت:

– لقد سمعت كل شيء يا سيدي، فقل لوالدي إنه لو عرف حقيقة ظروفي لغفر لي، ولكن العذاب الذي يصب علي أقوى من احتمالي

فانصرف إيجين مبهوتا وقد أدرك أن الكونت يعذبها عذابًا جسمانيا، ومضى من توه إلى دلفين فوجدها في فراشها

– إني مريضة يا صديقي فقد أصابني برد عند خروجي من المرقص وها أنا ذا في انتظار الطبيب.

– حتى لو كنت في النزع الأخير لما جاز لشيء أن يعوقك عن الذهاب إلى أبيك. ولو أنك سمعت صرخة من صرخاته التي سمعتها لما احتججت الآن بالمرض.

– لا أ عتقد أن حالة أبي سيئة إلى هذا الحد، فالذي يقتله حقًا أن يعلم أنني جازفت بتعريض نفسي للمرض بذهابي إليه. وسأذهب بمجرد انصراف الطبيب. ولكن أين الساعة؟ هل بعتها؟

فمال على سريرها وهمس في أذنها:

– اعلمي إذن أن والدك لا يملك ثمن التابوت الذي لا بد من تجهيزه له الليلة، فرهنت ساعتك لأنني خالي الوفاض

فقفزت من سريرها وأسرعت إلى درج أعطته منه كيس نقودها، ودقت الجرس لوصيفتها وهي تصيح:

– إني آتية معك يا إيجين، فسألبس بسرعة، اذهب أنت وسأصل أنا قبلك. يا تيريز أخبري البارون أنني أريد أن أكلمه الآن في أمر مهم.

وخف الفتى إلى الخان مغتبطا بالبشرى التي يحملها للشيخ المسكين، فلما وصل إلى هناك فتح كيس البارونة الغنية البارزة في الهيئة الاجتماعية ليدفع أجرة العربة، فإذا كل ما فيه سبعون فرنكا.

ولقي الطبيب والجراح الذي قام بفصد المريض خارجين، فابتدره بيان شون قائلًا:

– تشجع يا عزيزي إيجين، فنحن في نهاية النهاية، ويلزمنا الآن أن نغير أغطية الفراش التي تلوثت بالدم، وادع سيلفي لتساعدنا في هذا

فلما أخبر إيجين مدام فوكير بالمطلوب قالت له:

– يا عزيزي السيد إيجين أنت تعلم أن الأب جوريو لم يعد يملك شيئًا، فالأغطية النظيفة سأخسر ثمنها ولا محالة، فضلًا عن الأغطية الأخرى التي ستلزم للتابوت، ثم أنت مدين لي حتى الآن بمائة وأربعة وأربعين فرنكا، زد عليها أربعين فرنكا للأغطية وغيرها مثل الشمعة التي ستعطيك إياها سيلفي، فيكون المجموع نحو من مائتي فرنكا لا تستطيع أرملة مسكينة مثلي أن تتحملها، فضع نفسك في موضعي واعذرني، فإن وفاة إنسان في خاني أمر يصرف عنه الناس، وهذا الخان هو كل حياتي.

فأسرع إيجين يصعد السلم دون أن ينطبق بكلمة:

– بيان شون.. أين نقود رهن الساعة؟

– ها هي فوق النضد، وقد بقي منها نحو ثلاثمائة وستون فرنكا بعد أن سددت جميع التزاماتنا في الصيدلية وغيرها

وهبط إيجين كالبرق الخاطف وقال للأرملة:

– هاك يا سيدتي! خذي حسابك كاملًا، واطمئني، فالأب جوريو لن يطيل البقاء عندك

– يا سيلفي.. أخرجي الأغطية واذهبي

ثم همست في أذن إيجين:

– لا تنس سيلفي، فإنها ظلت ساهرة منذ ليلتين

– وحمل الشابان الأب جوريو ليرفعاه فوق الفراش، كل منهما من

جهة حتى تستطيع سيلفي تغيير الأغطية، وكانا راكعين لتسهيل العملية، فانخدع الرجل المحتضر الذي ضعف بصره وغشاه الدمع، فمد يديه فوجد في كل ناحية من ناحيتي الفراش رأسا، فجذب شعرها ثم غمغم في ضعف شديد:

– يا ملاكي العزيزين! ها أنتما..

وكان الجذل ظاهرًا في كلماته الأخيرة التي فقد بعدها الوعي، فقد حسبهما ابنتيه. وقال بيان شون:

– هذه هي النهاية، فسيظل هكذا بعض الوقت ثم يموت دون أن يتنبه إلى ذلك أحد، لأن جهازه العصبي قد تعطل، ولن يعي شيئًا، ولن يئن أو يتأوه

وفي هذه اللحظة سمعت على الدرج خطوات امرأة شابة تصعد لاهثة. فقال إيجين:

– لقد وصلت متأخرة

ولكنها لم تكن دلفين، بل تيريز وصفتها التي قالت:

– لقد نشبت مناقشة حامية الوطيس بين البارونة والبارون من أجل المال الذي طلبته لأبيها فأغمي عليها وحضر الطبيب.

– كفي يا تيريز. لم يعد لحضورها جدوى، فقد فقد الأب جوريو وعيه نهائيًا.

وفيما كانت سيلفي خارجة كادت تصطدم عند الباب بالكونتس التي دخلت في هيئة مروعة وأخذت تبكي حين رأت والدها ساكن الأوصال في رقدته الأخيرة فتناولت يده وجعلت تقبلها وتقول:

– اغفر لي يا أبي فإني لم أستطع الإفلات إلا الآن بعد أن أذعنت. أبي، كنت تقول إن صوتي خليق أن يخرجك من قبرك ويقيمك من الأموات فها أنا ذا أدعوك. لم يعد لي سواك قلب يحبني ويهتم بي في هذا العالم حتى طفلاي سيكرهاني بما جررته عليهما. خذني معك يا أبي، فقد تمت لي التعاسة! حتى مكسيم دي تراي الذي كنت أظنه مخلصًا لي قد هاجر تاركًا وراءه ديونا طائلة، وتأكد لي أيضًا أنه كان يخونني. وثروتي حملني زوجي على التخلي عنها، فماذا بقي لي؟ إن قلبك هو القلب الذي كان ينطوي لي على حب صادق ولكنني جحدته وتنكرت له.

وأفهمت إيجين أنها تريد أن تخلو إلى أبيها فنزل ليتناول شيئًا من الطعام. وبعد لحظات قليلة سمع من أعلى صوت الكونتس تصرخ:

– مات أبي.

وأسرع بيان شون يفحصه، ثم هبط ليقول لسائر النزلاء:

– إنه مات فعلًا

وحينئذ قالت مدام فوكير:

– إلى الطعام أيها السادة فقد كاد الحساء أن يبرد.

الدرس الأخير

مات الأب جوريو، وأقبل النزلاء على الطعام قبل أن يبرد الحساء، فلما انتهى الطعام قام إيجين وبيان شون لإعداد الواجبات الأخيرة لهذا الرجل المسكين الذي مات منبوذا ممن عاش حياته كلها من أجلهم. وكان أمام الشابين أن يدققا في كل شيء حتى يكفي ما معهما من مال قليل لإتمام مواراته التراب.

توجها أول كل شيء لالتماس قسيس يقبل الصلاة على جثمان الميت أثناء الليل. وفي الساعة التاسعة مساء أو نحوها سجي الجثمان بن شمعتين موقدتين في تلك الغرفة العارية، وجلس إلى جواره القسيس.

وقبل أن ينام إيجين سأل رجل الدين عن أتعاب الصلاة ومراسيم الجنازة، ثم كتب كلمة إلى البارون دي نوسنجين والكونت دي ريستو يرجوهما أن يرسلا من ينوب عنهما في القيام بمصروفات الدفن. وأرسل كريستوف بالرقعتين ثم آوى إلى فراشه فنام نوما عميقا لشدة ما كان يحسه من التعب.

وفي الصباح ذهب الشابان – إيجين وبيان شون – لإعلان الوفاة لدى السلطات واستخراج التصريح بالدفن. ومضت بعد ذلك ساعتان وليس من خبر من قبل البارون أو الكونت، فاضطر إيجين إلى دفع أتعاب القسيس.

وطلبت سيلفي الطباخة البدينة عشر فرنكات أجرًا لها على خياطة الكفن. فتشاور الشابان وقررا بعد الحساب والمراجعة أنه ليس في طاقتهما أن يقوما وحدهما بجميع التكاليف، فتطوع طالب الطب بيان شون بوضع الميت في تابوته بنفسه دون معاونة سيلفي، وأحضر التابوت مما يصرف للفقراء في المستشفى الذي يعمل فيه للمران، وبهذا لم يكلفه التابوت إلا مبلغًا يسيرًا جدًا، ثم قال بيان شون لإيجين في سخريته المعهودة:

– امض إلى جبانة «بيرلا شيز» واشتر حوشا بثمن مؤجل يحل بعد خمس سنين، ثم أوص في الكنيسة على صلاة جنازة من الدرجة الثالثة. وإذا رفض الصهران والبنتان أن يدفعوا التكاليف، فانقش على قبر المرحوم هذه العبارة.

«هنا يرقد السيد جوريو»

«والد البارونة دي نوسنجين والكونتس دي ريسيتو»

«مدفونا على نفقة اثنين من الطلبة»

ولكن إيجين لم ينفذ هذا الرأي إلا بعد أن توجه إلى القصرين، فوجد الأبواب هنا وهناك موصدة في وجهه وقال له هذا البواب وذاك عبارة واحدة لم تختلف في مؤداها

– سيداي لا يقابلان اليوم أحدًا، فقد مات أبوهما، وهما عليه غارقان في أحزان أليمة!

وكان إيجين قد عرف بما خبره من المجتمع الباريسي أن الإلحاح لا طائل تحته. وحز في نفسه ألا يستطيع الوصول إلى دلفين، فكتب لها رقعة وهو في حجرة البواب قال فيها:

«بيعي حلية من حليك حتى يحظى أبوك بنقلة لائقة إلى مثواه الأخير»

وأقفل المظروف ورجا البواب أن يسلمه لتيريز الوصيفة كي توصله إلى سيدتها، ولكن البواب سلمه إلى البارون الذي ألقاه في نار المدفأة دون أن يفضه.

وسار الموكب المتواضع إلى كنيسة قريبة، لا يتبعه إلا إيجين والخادم كريستوف. فهذا الخادم كان هو الشخص الوحيد الذي شعر بدافع لتوديع الشيخ المسكين، فشد إيجين على يده شاكرًا دون أن يستطيع النطق بكلمة واحدة.

وأخيرًا حضر كاهنان وشماس وعريف وتلوا أقصى ما يمكن من صلاة لم يتجاوز ما دفع فيها سبعين فرنكا. ثم تلوا مزمورا وبعض التراتيل. واستغرق هذا كله عشرين دقيقة. ولما انتهت الصلاة وبدأ سير الجنازة من الكنيسة إلى المدافن قال القسيس:

– ليس هناك مشيعون، ففي استطاعتنا إذن أن نمضي بسرعة حتى لا نتأخر، فالساعة الآن منتصف السادسة.

ولكن في اللحظة التي بدأ فيها تحرك العربة الجنائزية، شوهدت عربتان فارهتان فارغتان على إحداهما شعار الكونت دي ريستو، وعلى الأخرى شعار

البارون دي نوسنجين. وتبعت العربتان النعش إلى مقابر بيرلا شيز.

وفي الساعة السادسة ووري الأب جوريو التراب، وقد أحاط بقبره خدم ابنتيه الذين اختفوا باختفاء رجال الدين بمجرد تلاوة الصلاة الأخيرة على المقبرة.

وبعد أن أهال اللحادان بعض حفنات من التراب وقف أحدهما إلى الحفرة ومد يده إلى إيجين يطلب أجره. ففتش إيجين جيوبه فلم يجد فلسا واحدًا فاضطر إلى اقتراض عشرين سنتيما من الخادم كريستوف. وكان هذا على بساطته عاملًا على زيادة وطأة الكآبة على نفس الشاب. وكان الجو رطبا ثقيلًا على الأعصاب. فنظر إلى الحفرة وذرف دمعته الأخيرة ثم عقد ذراعيه فوق صدره ووقف يرقب السحب الداكنة، فلما رآه كريستوف على هذه الصورة تركه وانصرف.

فلما ألفى إيجين نفسه وحيدا صعد إلى قمة المقبرة وألقى نظرة على باريس النائمة على ضفتي السين، وقد بدأت الأنوار الأولى تشع فيها هنا وهناك. وكانت نظرة طافحة بالازدراء والتحدي

وأول ما فكر فيه من أعمال الزراية والتحدي لهذا المجتمع الراقي، إنه يمم من توه إلى حيث يتناول العشاء على انفراد مع البارونة دي نوسنجين.